-5-

صراع حضارات؟

"وضع المسلمين يائس إلى أبعد حد. وأنا على استعداد للتضحية بحياتي في سبيل قضيتهم". هذه الكلمات المرعبة سمعتها من صاحبي على مائدة العشاء، في أمسية ربيعية لطيفة في عمان. هذا الديبلوماسي المحنك، بحلته الأنيقة وربطة عنقه الحريرية الوردية ومنديله الذي زين صدره، كان سفيرا سابقا للعراق، ويرأس الآن مؤسسة استشارية عربية كبرى، تحدث بنبرة محسوبة وهادئة، صاغتها سنوات خدمته الطويلة، وهذا ما أضفى على رسالته مزيدا من البؤس واليأس: "ليس لدي شيء أعيش من أجله. فقدت ثقافتي، ووطني، وشرفي. خسرت ديني".

كنا في "تنورين"، المطعم الراقي المشهور بطعامه اللبناني، نجلس إلى مائدة عشاء أقامها سفير باكستان في الأردن، عارف كمال. كان الضيوف من نخبة المدينة، يعيشون حياة مريحة على الطراز الغربي، ويستطيعون السفر إلى الخارج متى أرادوا، ويتناولون طعامهم في أفخم المطاعم، ويجسدون أمثلة ناجحة على نموذج عليكره في عمان.

رتب كمال، وهو صديق قديم لي، دعوة العشاء بعد أن تحدثت أمام المعهد الملكي للدراسات الدينية، وهو من بنات أفكار الأمير الحسن، عم الملك الحالي وأحد أبرز المفكرين في العالم العربي. كانت مناسبة رفيعة المستوى، ترأس عليها السفير السابق حسن أبو نعمة، مدير المعهد، واجتذبت علماء وباحثين وصحفيين وسفراء وأعضاء مجلس الأعيان. ومع أن الجو المخيم اتسم بالود واللطف والتهذيب، إلا أنني واجهت بعض الأسئلة العدائية عن الولايات المتحدة وإسرائيل، من النوع الذي كنت سأتوقعه من حضور أقل دماثة وتهذيبا. سأل شاب يرتدي حلة دكناء ويضع نظارة لماذا كنت متعاطفا إلى هذا الحد مع صبي يهوديمشيرا إلى داني بيرلومتجاهلا مئات الآلاف من قتلى المسلمين. ومع ذلك بدا العشاء فيما بعد أمسية ممتعة جمعت ديبلوماسيين يكررون كليشهات مبتذلة وغير هجومية - إلى أن عبر السفير العراقي السابق عن يأسه.

قبل بضعة أيام فقط، في الثاني والعشرين من شباط/ فبراير 2006، دمر انفجار أحد أقدم المساجد في العراق، المسجد الذهبي في سامراء، الذي يضم مرقدي إمامين من أقدس أئمة الشيعة (في القرن التاسع)، أحدهما الحسن العسكري، والد الإمام الغائب. وكما يعرف كل شيعي، سوف تؤذن رجعة الإمام الغائب بنهاية العالم. ووفقا للاهوت الشيعي، سيقاتل الإمام الغائب جنبا إلى جنب عيسى المسيح ليهزما الأعور الدجال (النسخة الإسلامية من المسيح الدجال). أطلق تدمير المسجد سلسلة من الهجمات الدموية المتبادلة بين السنة والشيعة في العراق والأعمال الانتقامية التي استهدفت مساجد المذهبين.

لكن السفير العراقي لم يحمل المسلمين مسؤولية ما حدث. فعلى شاكلة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، اتهم الأمريكان والإسرائيليين بوضع المتفجرات في المسجد. قال غاضبا "لا يمكن لمسلم، شيعي أو سني، أن يفكر بتدمير مثل هذا المسجد المقدس، الذي صمد أمام أسوأ الفاتحين وأشدهم دموية في العالم – المغول". أخذت الآن ملاحظات السفير الهادئة، وكأنما هي صادرة منه إليه، انعطافة تنذر بالشؤم: حوادث مثل تلك التي وقعت في سامراء، ليست سوى تمهيد للدمار النهائي للحرم القدسي ذاته، الذي يخطط له الأمريكان والإسرائيليون بالتفصيل. المسلمون وصلوا فعلا إلى "نقطة الغليان"، وتدمير ما يدعوه المسلمون بالحرم القدسي، الذي يضم مسجد الصخرة بقبته الذهبية، ثالث الحرمين (مكة والمدينة)، سيمثل نقطة اللاعودة التي ستطلق أعمال عنف لا سابقة لها. لم تكن تلك المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الفكرة، إذ سمعتها قبل بضعة أيام في دمشق من وزيرة المغتربين. لا بد أن شعورا بخروج العالم عن السيطرة قد اكتسح السفير العراقي ودفعه للتكلم عن العمليات الانتحارية أمام شخص غريب. فهو ليس إرهابيا في "القاعدة"، ولا شابا متعصبا متزمتا، ولا شخصا يعاني الحرمان الاقتصادي مثل بعض أنماط الانتحاريين المسلمين. بل كان رجلا ذكيا مثقفا من عالم الديبلوماسية تجتاحه موجة يأس وغضب.

قطع حديثنا عند هذه النقطة وزير خارجية الأردن السابق، الذي أعلن أنه مسيحي، وهاجم بعنف الرسوم الكرتونية المسيئة للرسول. قال: "كيف يجرؤ الغرب على إهانة النبي؟

إنه أعظم بطل في نظري". فالغرب، كما قال غاضبا، لا يعلم شيئا عن المسيحية الحقيقية، دين المحبة وقبول الآخر، الذي لن يوجه مثل الإهانة الوحشية للديانات الأخرى.

فكرة المسيحي الذي يمجد فضائل وخصال نبي الإسلام قد تبدو مستبعدة للغربيين. لكن في السياق الثقافي للشرق الأوسط لا يعد النبي شخصية دينية وحسب، بل قائدا تاريخيا ملهما جلب السلام والأمان إلى العرب. والعرب المسيحيون الذين يعيشون في الشرق الأوسط قبل مجيء الإسلام وفي بيئته الثقافية، تعلموا النظر إلى الشخصيات الدينية في التراث الإسلامي باحترام وتبجيل.

حين تحول الحديث إلى عمليات الإذلال، خصوصا ما حدث في أبو غريب، رسم صحبي رابطة مباشرة بين السياسات الأمريكية وما يشعر به المسلمون في هذا الجزء من العالم من غضب ويأس. فقد أدت أعمال وأفعال أمريكا بطريقة مباشرة إلى مزيد من العنف وإشاعة الحديث عن الانتقام والثأر بين المسلمين، وهذا قد ينحدر إلى مستوى مزيد من "المؤامرات الإرهابية" التي تحاك وتحبط، ومزيد من العائلات الثكلى على جانبي المحيط، ومزيد من المجندين المسلمين والأمريكيين للحرب على الإرهاب. حتى أكثر المراقبين تفاؤلا يسارعون إلى السؤال: "هل نحن أخيرا في خضم صراع حضارات؟".

من الصعب الاعتقاد أن صمويل هنتنغتون، المتخصص في العلوم السياسية، كان على خطأ: فربما هناك "صراع حضارات" يجري على قدم وساق بين الغرب والإسلام، صراع حتمي لا مفر منه[1]. فالجراح عميقة، وسيتطلب جمع الطرفين المختلفين معا عملا شاقا وجهدا متواصلا وتعاطفا وتراحما. في العراق وأفغانستان، يبدو أن الحضارتين محاصرتان في الرمال المتحركة وفي بحر من الدماء والإرهاب. ومع كل قصة رعب وترويع جديدة، تتحول أسوأ كوابيس الناس إلى حقيقة واقعية. حين سمعت عن العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز/ يوليو 2006، تذكرت بكل وضوح الحديث الذي دار في تلك الأمسية في عمان. وتساءلت، ما هي ردة فعل السفير العراقي على خبر العدوان. ليس من الصعب تخيل استيائه الجارف وغضبه العارم على الولايات المتحدة، التي زعمت أنها تحارب في سبيل العدالة والسلام، لكنها اعترضت على قرار في الأمم المتحدة يطالب بوقف إطلاق النار ووقف تدمير لبنان.

الأمركة

لا يمكـن فهم هذا الاضطراب إلا في سياق العولمة والأمركة، المتزامنتين المترادفتين، وفقـا لمعلقين من أمثال توماس فريدمان[2]. وفي حين تسعى العولمة إلى نشر مثل أمريكية عزيـزة كالديمقراطيـة وحقوق الإنسـان، فهي تضعف وتبلي أيضـا قيما تحظى بإعجاب الكثيريـن وتسم المجتمع الأمريكـي، كالفردانية. لكن التشديـد الأمريكي على الفردانية دون ضوابـط يمكن أن يبطـل الواجب والمسؤولية تجاه الأسـرة والمجتمع، وهما من القيم التقليديـة التي يجلهـا ويقدرها المسلمـون. وفي الحقيقة، فـإن الرسالـة الشاملة للعولمة والـروح الأمريكية، وفقا لأخلاقيات العمل البروتستانتية التي تحدث عنها عالم الاجتماع ماكـس فيبر، هي الاستقلالية في جميـع صيغها، ونتائجها السريعـة، والانغماس في المتع المادية – ويمكن أن تفرز تأثيرات وبيلة على الفرد والمجتمع برمته.

يضـم تعبير "العولمة"، مـع أنه جديد نسبيـا، ظواهر تسربـت إلى الذهنية والثقافة الأمريكيـة على مر السنـين، خصوصا تأثيرات التقانة المتقدمـة بقصص نجاحها الذي يتحقـق بـين عشية وضحاها. ومـع أن الأمريكيين قـدروا على الدوام قيمـة العمل الجاد والدؤوب، إلا أن الكثيرين منهم اليوم يبحثون عن "السبيل السريع" المفضي إلى النجاح. والتشديـد على تطوير الخبرة المناسبة أو المهارات الضروريـة، التي تتطلب وقتا ومثابرة ودأبا، خلى مكانه للرغبة في "الصورة الصحيحة". المؤهلات تعتمد على الموهبة "المصنعة" بـدلا من المزايا والسمات المكتسبـة بالتجربة والخبرة والتعليم. فصـورة السياسيين من الحزبـين كليهما تخضع لعملية تلميع وتشذيب وصقل بواسطة مؤسسات العلاقات العامة والمستشاريـن السياسيـين، وتستند الخطب التي يلقونهـا إلى صيغ "الملاحظات اللاذعة واللافتـة" المقتبسـة مـن الأخبـار، وهـي أبعـد ما تكون عـن بلاغـة كلمـات لينكولن أو جيفرسـون أو واشنطن. ويقر الجمهوريون والديمقراطيون على حد سواء بـ "نبوغ" كارل روف، مثلا، وينسبون إليه فضل "خلق" الانتصار الانتخابي الذي حققه جورج بوش الابن مرتين متواليتين.

يقود عالم الترفيه بثقافته المرتكزة على المشاهير عملية توكيد قيمة الصورة. فنجاح رمـوز الثقافـة الشعبية مثل ويتنـي سبيرز أو باريس هيلتون يعـزى إلى المظهر الخارجي،

والشعبيـة، والعلاقـات العامة؛ فهي مـن منتجات عالم البعدين علـى شاشة التلفزيون لا العالم الحقيقي. لكـن يخفق العديد من الأمريكيين في التمييز، بل يأخذون النماذج التي يحتـذى مثالهـا من نسخة الشاشـة المسطحة[3]. وحين دعيت إلى التحـدث أمام جمهور مميـز والإقامة في أحد أفضل فنادق الولايات المتحدة، وجدت في غرفتي قطع الشوكولاته وطاقات الورود، إلى جانب بطاقات تحوي لآلئ الحكمة، لا من الكتاب المقدس أو شكسبير، بـل من دونالد ترامب. الغـرف في طابق رجال الأعمال في فنـدق هيلتون اناهيم في لوس أنجلوس قدمت الحكمة التالية لدونالد ترامـب في شهر تشرين الأول/أكتوبر: "ما دمت ستفكر في كل الأحوال، ففكر بشيء مهم".

في المجتمـع الأمريكي، تحمـل صورة ومظهر النجاح الدرجة ذاتهـا من تأثير النجاح والسلطـة الحقيقيين. إذ يشيد الأفراد في مختلف أرجـاء الولايات المتحدة بيوتا بملايين الدولارات وينفقون مبالغ كبـيرة على الثياب والسيارات والمجوهرات لاكتساب الاعتراف الاجتماعـي. ويتلقى هـذا الانهمام والتبذير التمجيد والمديح مـن عروض وبرامج وسائل الإعـلام العالميـة مثل برنامج "أساليب حياة الأثريـاء والمشهورين" قبل عقد من الزمن، وبرنامج "ام تي في" الحالي والمتبجح "بيوت"، الذي يعرض بعضا من أفخم وأغلى البيوت في العالم. الرغبة الجامحة في الثراء والنزعة الاستهلاكية المفرطة تمثلان أيضا ركيزتين من ركائز العولمة، التي تحتاج إلى أسواق متوسعة للمصفوفة الهائلة من منتجاتها الكمالية والباهظة الثمن.

وفي حـين أن ثقافـة "الأنـا" تشغـل محـرك العولمـة وتبقيه دائـرا، فهي تنتـج أيضا بعض "الملوثـات" الخطرة. وعبر تشجيـع التمركز على الذات في السعـي وراء الأهداف الاقتصادية والمتعية، تدمر القدرة علـى التعاطف مع الآخرين. أما المجتمعات التقليدية، المرتكزة غالبا على الجماعة، فترى العالم تحت ضوء مختلف، وتعد الإفراط في الاهتمام بالـذات انحرافـا ضلاليـا ومؤشـرا دلاليا علـى الانهيـار الاجتماعي. في العـادة، يشعر الأغنيـاء والأقوياء في المجتمعات التقليدية بالتزام أخلاقي بمساعدة الفقراء والمحتاجين لأن المجتمع معرف بتعابير جمعية لا بوصفه مجموعة من الأفراد المستقلين. وتشير بعض الدراسـات الأكاديميـة التـي أجريت منـذ مدة قريبـة إلى أن أخلاقيات الجـد والمثابرة

والاجتهـاد والاستقلال الشخصي تدفع الكثير مـن الأمريكيين إلى تقديم الحجة على أن المحرومين يجـب أن يلوموا أنفسهم، لأن بمقدورهم تحسـين حياتهم إذا غيروا مواقفهم وتفكيرهم. قد يصح ذلك في بعض الحالات لكن ليس كلها بالتأكيد، ويجب عدم السماح بانحياز المجتمع ضد الفقراء أو كبت التعاطف مع المحتاجين.

مـن التأثيرات السلبية الأخرى للعولمة اتساع الفجوات الفاصلة بين الأغنياء والفقراء داخـل / وبـين بلدان العـالم، دون ظهور أي علامـة دالة على تضييقهـا. هنالك مليارات مـن البشـر يعيشون في فقر مدقـع يقترب من حافة الجوع، في حين تزيـد ثروة ثلاثة من أغنـى أغنيـاء العالم على ثـروة نصف سكان الأرض معا[4]. وفي كثير مـن الحالات، لا تساعد سياسات العولمة والسوق الحر التي ينتهجها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وتستهـدف تخفيف حدة الفقر في العالم، المحرومين في المجتمعات التقليدية. ومع ذلك لا يـرى كثير من المعلقين بديلا آخر سوى القبـول بالعولمة والمنافسة وفقا لشروطها: المسألة مسألة بقاء، لا خيار. فإذا كانت بعض الدول أبطأ من غيرها في اللحاق بالركب، وتقاسم المنافـع، يجـب أن يقع اللوم علـى قوانينها وبطء حركتها لا على النظـام. وفي حين يذكي شعور أمريكا القوي بالفردانية نار العولمة، إلا أن السمة ذاتها كما ذكرنا آنفا تعرقل تحمل المسؤوليـة عن الأفعال الشخصية، وهو موقف ينتشر الآن في شتى أنحاء المعمورة. ويخفق الأمريكيـون في إدراك حقيقـة أن خطابهـم وأفعالهم، خصوصا مسلكهـم الاستهلاكي، يؤثـران تأثـيرا مباشرا في العالم الخارجـي، الذي يزداد انتقادا لهـم. ويتفق العديد من المراقبـين على تخلـي الأمريكيين عن المسؤولية والوعي نتيجـة العولمة، لا سيما من جانب الزعماء السياسيين.

يعيشـ العديـد من الأمريكيين في شرنقـة مكونة من المكتب والمتجـر المتعدد الأقسام (السوبـر ماركـت) ومنطقتهم من المدينـة، حيث لا يجبرون بالضـرورة على التعامل مع أشخاص آخريـن مختلفين عنهم - عرقيـا أو إثنيـا أو دينيا أو اقتصاديـا. وضمن هذه الشرنقـة، يمكـن للحياة أن تكون ممتعـة إلى أقصى حد وبعيـدة كل البعد عن حقيقة أن أمتهـم في حالة حرب، أو جرائم القتل المتعلقة بالمخدرات في الأحياء الفقيرة من المدينة، أو الفقـر المدقـع في أحيـاء أخرى. بيثيسـدا، حيث أعيشـ، ضاحية جميلـة من ضواحي

واشنطن دي. سي، تضم سكانا ينتمون إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى ومن البيض على الأغلب، لكنها تتناقض تناقضا صارخا على الصعيد الديمغرافي والاجتماعي مع جنوب شرق واشنطن دي سي، حيث معظم السكان من السود. معدل وفيات الأطفال في واشنطن بين الأمريكيين الأفارقة أعلى منه في ولاية كيرالا الهندية، وفي جميع أرجاء الولايات المتحدة، تبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال السود في السنة الأولى من العمر ضعف نسبتها لدى الأطفال البيض[5]. اوبرا وينفري عرضت على محطة "سي ان ان" عام 2006 برنامجا تلفزيونيا من جزأين ("تقرير خاص: المدارس الأمريكية في أزمة")، فضحت فيه الظروف المروعة في مدارس الأحياء الداخلية في المدن الأمريكية، ومنها واشنطن. لا يعرف الكثيرون ممن خالطتهم في واشنطن شيئا عن هذه الأرقام أو أهميتها الدلالية الاجتماعية لأنهم منشغلون بحياتهم اليومية الخاصة.

وعلى نحو مشابه، لا يسافر سوى عدد قليل من الأمريكيين، على الرغم من ثرائهم عموما، خارج الولايات المتحدة أو ربما أوروبا، ولذلك لا يعرفون سوى القليل عن بلدان العالم الأخرى. والتوجهات الإخبارية الأمريكية التي تركز على الأحداث الوطنية تطغى على قصص الحرب في العراق وأفغانستان. ولا يسمع سوى القليل عن أحداث العالم الخارجي إلا إذا كان لها تأثير مباشر على الولايات المتحدة[6]. فضلا على ذلك، لا توجد محاولات تذكر لنقض وتغيير القوالب المنمطة للبلدان والشعوب الأخرى. ولذلك، لا يملك الأمريكيون سوى رؤية ضيقة للعالم مقارنة بما يمكن توقعه من مواطني القوة العظمى الوحيدة.

مع أن الأفراد يعيشون على ما يبدو في خضم الصخب واللون والحركة، إلا أنهم يظلون معزولين عن المجتمع بل متوحدين في حياتهم اليومية الروتينية، في منازلهم أو سياراتهم أو عند الذهاب إلى العمل والعودة منه. فهذا عصر يتضاءل فيه باطراد التواصل الإنساني أو التفكير بوضع البشر الآخرين. عبرت عن هذه العزلة وغياب الحساسية الوجدانية كتابات توم بيروتا مثلا، أو أفلام مثل "صور مدة ساعة" و"الجميلة الأمريكية" و "اصطدام"، الذي ابتدأ بمشهد اصطدام سيارة وصوت يقول: "إنه شعور بالملامسة. في أي مدينة حقيقية، أنت تسير في الشارع، أليس كذلك؟ تلامس السابلة.

يصطدم الناس بك. لكن في لوس أنجلوس لا يلمسك أحد. تظل دوما خلف حاجز الحديد والزجاج. أعتقد أننا فقدنا تلك اللمسة إلى حد أننا نصدم سيارتنا بعضها ببعض لكي نشعر بشيء ما".

ولربما أسوأ من ذلك كله وحدة وعزلة الأطفال الذين يترعرعون تحت مظلة العولمة، التي تجبر الآباء في بعض الحالات على العمل طول النهار، وفي أخرى تسبب انهيار وحدة العائلةالنووية والممتدة على حد سواء. حالات الطلاق مرتفعة إلى درجة أن من بين كل طفلين في الولايات المتحدة هنالك طفل يأتي من عائلة مقسمة. ووفقا لمكتب الإحصاء الأمريكي، سوف يمضي 61% من جميع الأطفال سنوات حياتهم التكوينية كلها أو جزءا منها في أسر انفصل فيها الأبوان[7]. هذه اتجاهات ونزعات معروفة على نطاق واسع وتفرز تأثيرات مقلقة: تراجع تدخل الآباء وتزايد استقلالية الأطفال يعنيان مزيدا من الوصول إلى المواد المخصصة للراشدين ومن الاعتماد على التلفزيون أو ألعاب الفيديو للحصول على الصحبة في بيئتهم الانعزالية. المدارس أيضا تخفق في تشجيع الصداقة وحسن النيات. وفي العديد منها صفوف كبيرة كثيرا ما تكون ميدانالاستئساد والتنمر على الضعفاء. وبدءا من المدرسة الثانوية يتعرض الشبان والشابات لثقافة الإباحة والملذات والانهمامبشؤون الذات[8].

ما يراه الطفل، وحتى البالغ، على شاشة التلفزيون يصبح على قدر حاسم من الأهمية في فهم كيف يفكر الأمريكيون العاديون في سلسلة كاملة من القضايا، تشمل العرق والدين والمجتمع. ولسوف يكتسب الكثير من الأطفال معارفهم عن سياسة الكراهية أو الجنس من هذا المصدر لأن هذه الموضوعات تناقش على الشاشة بوتيرة أكبر منها مع الآباء. أما مدركات أولئك الذين لا يعرفون سوى القليل عن الجماعات الإثنية الأخرى فيمكن أن تتأثر تأثرا شديدا بألعاب الفيديو والمسلسلات التلفزيونية العنيفة والمتخمة بالسموم العنصرية. فمثل هذه المؤثرات تعزز الأنماط الموجودة عبر استخدام التقانة المتقدمة. وتأثيرها العميق في الشباب يمكن أن نجده في العنف العشوائي والخالي من الهدف والمعنى لدى طلاب المدارس الثانوية، كما وثقه مايكل مور في أحد أفلامه الشهيرة[*]. وفي حين يجب أن يوجه الدين المجتمعات نحو مزيد من الفهم الاستيعابي للعالم، إلا أنه يفاقم هنا

(*) Bowling For Clombine

الأحكام المسبقة والمتحيزة. وفي تفسير عصري للكتاب المقدس بعنوان: "المتخلفون عن الركب"، بيع منه 63 مليون نسخة، يصف المؤلفان تيم لاهاي وجيري جينكنز القيامة في بيئة تشبه أحد أفلام الحركة الاستعراضية، وهذا ما استحث العديد من القراء على الاعتقاد أن النهاية وشيكة ومن ثم تأييد ودعم بعض الممارسات والخطوات السياسية المعينة داخل وخارج الولايات المتحدة. الأحكام المسبقة والمتحيزة تحفزها وتشجعها أيضا ألعاب الفيديو الجديدة مثل "القوى الأبدية"، حيث يقاتل اللاعبون باسم جيش المسيح جيش المسيح الدجال في ساحات مثل مدينة نيويورك. نورد فيما يلي الكتابة التي ترافق اللعبة:

هل استخدم المسيحيون المدافع ضد غير المسيحيين؟ ولماذا؟:

القصة في اللعبة تبدأ بعد اللقاء مع المسيح في منتصف الطريق وهو عائد من السماء - حين يرفع الرب البالغين والرضع والعديد من الأطفال المسيحيين إلى السماء. أما من بقي سكان الأرض - الذين تركوا وحدهم وتخلفوا عن الركب - فعليهم أن يتخذوا قرارهم في مرحلة ما. إذ لا يستطيعون البقاء على الحياد. عليهم إما الانضمام إلى المسيح الدجال - أي حكومة عالمية احتيالية تسعى لتحقيق السلام لجميع البشر. أو الانضمام إلى "قوة المحنة" - التي تسعى إلى كشف الحقيقة ومقاومة قوى المسيح الدجال[9].

الجمهور المستهدف هو "ملايين الآباء - والعديد من اللاعبين العابرين - الذين يبحثون عن التسلية والترفيه مع مضمون إيجابي وإلهامي". المشكلة الوحيدة أن لعبة الفيديو تعرف غير المسيحيين كلهم بوصفهم العدو، وهذا يقتضي ضمنا أن جميع غير المسيحيين أشرار ومن الواجب إما هدايتهم أو قتلهم. ولا ريب في أن ألعابا وكتبا كهذه تحظى بشعبية هائلة وتمنع اللاعبين / القراء من القبول بمن يكون خارج الدين المسيحي. وفي حين أعتقد أن على الجميع اتباع معتقداتهم الدينية الخاصة بهم، إلا أن هذا الخط الاستبعادي/الإقصائي من التفكير، على شاكلة بعض العناصر المتطرفة في نموذج ديوباند الإسلامي، يجعل من الأصعب التواصل مع الحضارات الأخرى عبر الصداقة والسلام.

obeikandl.com

ألعاب الفيديو الحربية حيث يقتل اللاعبون، غالبا على هيئة جنود أمريكيين، مسلمين متعصبين وموتورين دون داع أو سياق، أصبحت تحظى أيضا بشعبية كاسحة. وهي تشمل "الضربة المعاكسة" و"القتال القريب"، ولعبة الفيديو المجانية على الإنترنت "جيش أمريكا، (يلعبها أكثر من 7.5 مليون مستخدم) التي أطلقها الجيش الأمريكي عام 2002 للمساعدة في تجنيد المواطنين. ومع أن المسلمين ليسوا الأشرار الوحيدين، إلا أن الألعاب تعزز القوالب المنمطة وتغذي المدركات السائدة في العالم الإسلامي التي تؤكد أن الولايات المتحدة تشن حربا على الإسلام. وردا على ذلك، أطلقت بعض الشركات في البلدان الإسلامية ألعابها الخاصة بها، حيث يقتل اللاعبون الأمريكيين والإسرائيليين[10].

الافتقار إلى المسؤولية الشخصية المعزز بالفردانية الدينامية يؤثر في مستقبل الكوكب الأرضي. ونظرا لعدم إدراك الأمريكيين لهذه العواقب الواسعة النطاق والبعيدة المدى، فإنهم يخفقون في فهم حقيقة أن ثقافتهم تجتذب انتقادات من بلدان العالم الأخرى، أو أن غطرسة قادتهم وزعمائهم تزيد الطين بلة. إن تجاهل الحجج الدامغة على تأثيرات غازات ثاني أكسيد الكربون في الاحتباس الحراري، والإنفاق العسكري المفرط، والنزعة إلى القبول بزيادة المديونية من أجل المكاسب الآنية، والمغامرات العسكرية الخارجية المخططة بتسرع وطيش والمنفذة بغباء وخرق، قد تثبت جميعها أنها ستكون نقطة تحول مفصلية في مصائر أمريكا والأمركة ذاتها.

"أمة سافاج"(*)

من الأسهل بكثير التعامل مع قصة متفجرة مثل فضيحة أبو غريب عبر القول إن أفعال ليندي انغلند وزملائها هي مجرد ضلال انحرافي عن الأسلوب الأمريكي المعتاد، أو أن ستيفن غرين وأصدقاءه الذين اغتصبوا فتاة في المحمودية ارتكبوا فعلتهم لأنهم كانوا "تحت الضغط" في العراق. حتى المجازر في بلدة الحديثة أنكرت بوصفها "خطأ"، على افتراض أن الأمريكي لن يرتكب جرائم فظيعة كهذه. لكن مهما تردد الأمريكيون في الاعتراف بها، فإن هذه الأعمال البربرية تتصل بمناخ الشعور بالكراهية والعنف تجاه المسلمين الذي تطور وتفاقم في الولايات المتحدة في السنوات القليلة الماضية. وبسبب هذا التردد والإحجام، تعرضت هذه الصلة الرابطة إما إلى الرفض أو التجاهل.

(*) اسم برنامج إذاعي وتلفزيوني شهير يقدمه مايكل سافاج (Michael Savage). الجدير بالذكر أن معنى لفظة / savage/ الإنكليزية هو /همجي/ أو /بربري/. (م)

خـرج مقدمـو برامج الحـوار في الإذاعة والتلفزيون مـن هذه البيئـة الثقافية ذاتها ليعملـوا على تعريفها وقيادتها، وكثيرا ما ثرثروا هاذرين عن موضوعات زعموا معرفتهم بهـا. وكوّن وغذى ما يعانونه من رهاب الأجانـب واستغلالهم السافر لأكثر صيغ الوطنية الشوفينية فظاظة وفجاجة وبدائية الشعور العام بانعدام الأمن. الخوف والقلق يخترقان الأرضـ. المطارات ومحطات القطارات، محور العولمة وبؤرتها لأنها ترمز للسفر والتجارة والاتصالات، غدت الآن معسكرات حربية صغيرة، حيث يتأخر المسافرون ويعانون الإحباط وخيبة الأمل في كل رحلة تقريبا. في حين أجبر المسلمون على مواجهة خزي وعار الحادي عشر من سبتمبر في كل محطة من رحلتهم بسبب الانتباه الخاص المركز عليهم والإذلال الموجـه إليهم. وأصبحوا ضحايا الشعور بالمسؤوليـة الجمعية عن أعمال المختطفين الذي فرضته عليهم وسائل الإعلام.

مسلسـل الجاسوسيـة الشهـير، "24"، الـذي عرضته محطة "فوكـس"، ووصفته مجلـة "تـايم" بأنه واحد مـن "أفضل المسلسـلات التلفزيونية في العقـد الأخير"، يدين بمعظـم شعبيته إلى تعبـيره الدقيق عن الحالة المزاجية الأمريكيـة السائدة بعد الحادي عشر من سبتمبر[11]. فهو يقتفي الأحداث في يوم واحد من حياة عميل مكافحة الإرهاب جـاك بوير، ويظهر سباقه المستمر مع الزمن لمنع محـاولات الاغتيال، وإحباط الهجمات بالأسلحـة الجرثوميـة، وإفشال المخططـات الإرهابية، ومن ثم العثـور على حل "لتجنب الكارثـة". يعرض المسلسل أحداثا شديدة التوتر، كما تتكشف خلال اليوم عبر استخدام تقنيـات عرض عدة صـور على الشاشة و"الزمـن الحقيقي"، ومن ثـم توجيه التلفزيون وجهة جديدة. لكن للمسلسل جانبا مثيرا للجدل أيضا: فهو يستغل الشعور بانعدام اليقين والشـك والارتياب الـذي يسود المجتمـع. الأشرار المسلمـون ليسوا بعيدين عـن العقدة، والتعذيب يقدم كوسيلة ضرورية لهزيمة الإرهاب في سيناريوهات "القنبلة الموقوتة". ومع ذلـك، حظي العرضـ بجمهور كبير من المشاهدين الأمريكيـين. وحتى مايكل تشيرتوف، وزيـر الأمن الوطني علق علـى صلة العرض بحرب الولايات المتحـدة على الإرهاب وعلى الحاجـة إلى الحفاظ علـى عملاء مثل جاك بويـر لمساعدة أمريكا علـى إلحاق الهزيمة به[12].

العيش في عصر العولمة يعني أن برامج محطة "فوكس" التي تصور المسلمين كإرهابيين أشرار تناقش في صحافة البلاد الإسلامية فور بثها تقريبا، وذلك كما تشرح واحدة من الصحف الباكستانية الواسعة الانتشار: "ثمة دراما تلفزيونية شعبية بدأت موسمها السادس هذا الأسبوع، تسبب قلقا للجالية المسلمة في أمريكا نتيجة تصويرها المسلمين كإرهابيين يدسون القنابل في المدن الأمريكية الكبرى. الموسم الحالي لمسلسل فوكس 24، افتتح بحلقة مدتها ساعتين نقلت المشاهد سنتين إلى المستقبل، حيث تتعرض أمريكا لإرهاب الانتحاريين المسلمين. فيقيم رئيس موظفي البيت الأبيض (الأمريكي الإفريقي) معسكرات احتجاز للمسلمين شبيهة بمعسكرات الاحتجاز التي أقيمت للأمريكيين اليابانيين في الحرب العالمية الثانية"[13].

بكلمات أخرى، كشف الخوف الرهابي من المسلمين القناع عن وجهه وبدا صارخا وسافرا في وسائل الإعلام. هنالك حالة أخرى في هذا السياق يمثلها مايكل سافاج، مقدم البرنامج التلفزيوني والإذاعي "أمة سافاج". يعتنق سافاج، الذي يعد شخصية إذاعية شهيرة تحظى بمتابعة عشرة ملايين مستمع، موقفا سافرا شديد الكراهية للعرب والمسلمين، حيث دعا الولايات المتحدة مرة إلى "قتل آلاف الأسرى العراقيين وقصف إحدى العواصم العربية بالقنابل النووية"[14]. ولم يكن سافاج الوحيد في التعبير عن مثل هذه المشاعر العدائية، ولا كان مدركا لحقيقة أن ما يفعله يجعل العالم مكانا أشد خطرا. في إحدى المناسبات العامة في سان فرانسيسكو (أيار / مايو 2004)، قال سافاج: "لا آبه إذا ما اختبؤوا (المسلمون / العرب) تحت تنانير نسائهم - ولا يهمني قتل أعداد كبيرة منهن معهم! لأن نساءنا هن من قتل في الحادي عشر من سبتمبر! وهن من سيقتل غدا إذا لم نتخلص من حشرات البق التي تدمرنا!". نجح سافاج في إيجاد جو من الوطنية الشوفينية الفجة والعواطف الهوجاء العمياء لدى مستمعيه وجمهوره. وحين سأل: "هل يأبه أحد بينكم لحياة العراقيين؟" صاح الحشد بصوت هادر: "لا!".

يرفض سافاج محاولة جورج بوش كسب "قلوب وعقول" المسلمين. ففي نظره، لا علاقة للطف والرقة في التعامل مع العالم الإسلامي بكسب العقول والقلوب؛ فهذا أسلوب مفرط في "لينه". وحين تفجرت فضيحة أبو غريب، قال سافاج مازحا: "أهذه تحقيقات

واستجوابات قاسية؟ لقد تعرضت لأقسى منها من والدي حين كنت في السادسة عشرة!". ومـن ثم انتقل لتقديم الحجة على أن ليندي انغلند كانت رمزا للحرب على الإرهاب، وأن "ركل المسلم على قفاه" يمكن أن يكون "متعة مسلية".

ووفقا لهذه الذهنية، يجب أن تكون علاقة أمريكا بالعالم الإسلامي تعبيرا عن القوة. ولا يهم رأي البلدان الأخرى أو "الليبراليين المدعين الذين يزعمون التعاطف مع الآخرين". العديـد من معتنقي هذا المعتقد -ومنهم روش ليمبـو- يصرون بإلحاح على أن ما حدث في أبـو غريب كان مجرد مزحة أخوية لا تـؤذي ولا تضر. على سبيل المثال، ألح السيناتور جيمس انهوف (من اوكلاهوما) على أن السجناء نالوا ما كانوا يستحقون. وخلال جلسات الاستمـاع المتعلقة بفضيحة إساءة معاملـة السجناء عام 2004، قال انهوف: "لست على الأرجـح الوحيـد على هذه الطاولة الذي أغضبه الغضـب لا المعاملة. هؤلاء السجناء قتلة ومجرمـون وإرهابيون ومتمردون، والعديد منهم تلطخـت أيديهم بالدماء. وها نحن هنا ننشغـل بمعاملة هـؤلاء الأفراد"[15]. ومضى السيناتور ليقـول إن الجنود الأمريكيين هم الذيـن يستحقون التعاطـف: "أغضبني أيضا أن لدينا الكثيرين مـن السذج ذوي النيات الإنسانية الطيبة الذين يزحفون الآن في تلك السجون بحثا عن انتهاكات حقوق الإنسان، في حـين يقاتـل جنودنا، أبطالنـا، ويموتون". أتت هـذه الملاحظة بعـد أن أعلن الصليب الأحمـر أن 70. 90% من السجناء العراقيين "اعتقلوا خطـأ"[16]. الصحفية المحافظة آن كولـتر قللت أيضا من شأن مثل هذه الحوادث بوصفها أخطاء ثانوية لا أهمية لها عند مقارنتهـا بالوحشية الساحقة للمسلمين. ورسمت أيضـا "سياستها" الحكيمة للمسلمين، التـي "استحثت عاصفـة مدوية من التصفيـق" في شباط / فبرايـر 2006: "أعتقد أن شعارنـا بعـد الحادي عشر من سبتمـبر يجب أن يكون: (حين يتصـرف المسلمون بقسوة يواجهون العواقب)"[17].

في الرابع عشر من تشرين الثاني / نوفمبر 2006، تحدى غلين بيك، المعلق الإخباري في محطـة "سـي ان ان"، كيث اليسـون (الديمقراطي)، أول عضو مسلـم في الكونغرس بالقول: "أريدك أن تثبت لي أنك لا تعمل مع أعدائنا"[18]. في كل عرض تلفزيوني تصيب بيـك نوبة محمومـة من الخوف الرهابي مـن الإسلام. وكل من يبـدي تعاطفا مع قضية

إسلاميــة هدف محتمــل لهذه النوبات المسعــورة - بدءا من محمــود أحمدي نجاد الذي يدعــوه بيــك دون سبب واضــح "الرئيس توم"، وانتهــاء بالرئيس كارتر الــذي تجرأ على تناول محنة الفلسطينيين في أحدث كتبه "فلسطين: سلام لا نظام عنصري"[19]. وعمل بيــك أيضا على ترويج وتشجيع منتقدي الإسلام، مثــل ايان هيرسي علي وإرشاد منجي، ومنحهم وقتا كافيا للتحدث على الهواء.

بوصفــي أستاذا جامعيا أدرس الإسلام وتستضيفنــي وسائل الإعلام مرارا وتكرارا، أتلقــى الــردود، السلبيــة والإيجابية، على ملاحظاتــي وتعليقاتي. ولحســن الحظ، تفوق الإيجابيــة السلبيــة عددا. إحدى الرسائل التي كتبت في أيلــول/ سبتمبر تقول: "الإسلام نظــام اعتقــادي شرير يسعــى لإفساد الغــرب والهيمنة عليــه وتدميره. لــن نخضع أبدا لبربريتكــم وخرافاتكم. لن تتمكنــوا أبدا من هزيمتنا. لن ننسى أبــدا الحادي عشر من سبتمبر.. وسوف ندمر هذا الشر الأسود الذي أتى به إلى العالم رسول الشيطان.. أوقف ترويج هذا الشر في الولايات المتحدة الأمريكية". رسالة أخرى بعثت بها صديقة مشهورة في الإعــلام، ردا على طلب مشورتها ونصحها فيما يتعلــق بالكراهية، قالت: "بصراحة، يبــدو لي أن هــذا الشخص على شاكلــة بعض العنصريين الموتوريــن الذين قابلتهم بضع مــرات طــوال حياتي. وتبدو آراؤه متجــذرة في الهوى لا في المنطق، والعديــد من أمثاله لا يقبلون التغيير. وما يجعل الأمر أشد سوءا وسائل الإعلام اليمينية مثل فوكس. ولا بد أنه يسمــع ويشاهد هذه الشبكات". وهــي أيضا رأت الصلة الجامعة بين الشخص الذي بعث برسالة الكراهية ومناخ الخوف والكره الذي ترعاه وتغذيه وسائل الإعلام[20].

حتــى قبل أحداث عــام 2001، كان مناخ العــداء والترهيب والتخويــف يتشكل إزاء المسلمين في الولايات المتحدة. فقد صورت أفلام هوليود ومعلقو وسائل الإعلام المسلمين، خصوصا العرب، كمتطرفين أو مؤيدين للعنف، يتأصل فيهم - غريزيا - العداء للولايات المتحــدة. وبعد الحادي عشــر من سبتمبر، ارتفع مستوى الكــره والعنف إلى درجة لافتة. ومنــذ الحــرب على العــراق، ازداد الوضع سوءا. بعض الأمريكيين يشــيرون إلى العرب بوصفهــم أولئك الذين يضعون "بقعة على الجبين"، وبذلك يخلطون نتيجة الجهل الدين والجندر، حيث لا تضع هذه العلامة سوى النساء الهندوسيات فقط.

وفي الحقيقة، ومثلما أشرنا آنفا في المناقشة السابقة عن المستشرقين والمحافظين الجدد، هنالك قالب منمط للخطاب المعادي للمسلمين في التاريخ الأمريكي القريب تسرب إلى الجيش ويترجم الآن إلى فعل إجرائي. إذ أبلغ قائد سرية أمريكي صحيفة "نيويورك تايمز"، مستعرضا كل ما قاله دوغلاس ماك آرثر في خطابه الواثق عن الشرقيين عام 1945، إن "من الضروري فهم العقل العربي. الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو القوة – القوة، والخيلاء، وإنقاذ ماء الوجه". وبغض النظر عن كون هذه الآراء تمثل قلة من المرؤوسين الأغرار، إلا أنها اخترقت أعلى المراتب الهرمية في القيادة الأمريكية. ففي كتاب "كوبرا 2"، يعرض المؤلفان مايكل غوردون وبرنارد ترنر هذا التعليق البشع الذي أدلي به أحد كبار الضباط: "الشيء الوحيد الذي يفهمه زنوج الرمال هؤلاء هو القوة، ولسوف أعرفهم بها"[21]. على نحو مشابه، لم يرتق الزعماء المسيحيون المشهورون إلى مستوى كلامهم عن الحب والعدل للجميع. القس فرانكلين غراهام، الذي استهل بصلاته مراسم تنصيب جورج بوش رئيسا، دعا الإسلام "دينا خبيثا وشريرا"[22]. فإله الإسلام ليس رب المسيحية على حد زعمه. أما القس جيري فاينز فقد أدان نبي الإسلام بوصفه ".."[23](*). وبرأي جيري فالويل كان النبي "إرهابيا"[24]. وفيما بعد، أعلن الجنرال وليام بويكين، نائب معاون وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات والشخصية الأساسية في الحرب على الإرهاب، أن الإسلام دين شيطاني لعبدة الأصنام[25]، وأثار اتهامه جدلا خلافيا واسعا.

وبالانسجام مع المزاج العام المحيط بهذه العبارات، فتحت السلطة التشريعية الأمريكية الباب أمام الحط من مكانة المسلمين وحرمانهم من الحقوق الممنوحة لكل مواطن أمريكي آخر. تعرض قانون الوطنية للانتقاد بسبب تعديه على الحقوق المدنية للمسلمين والعرب المهاجرين. وكثيرا ما استخدم القانون الذي قصد به محاربة الإرهاب لمضايقة المسلمين دون داع واضطهادهم في حالات عديدة دون مبرر فعلي. في إحدى الحالات، استقصى المحققون ما دعوه بزعم معقول عن حارس في مركز احتجاز للمهاجرين سدد مسدسا مذخرا إلى رأس أحد المحتجزين. وفي حالة أخرى، قدم سجناء مسلمون دليلا مقنعا على تعرضهم للسخرية والاستهزاء بسبب دينهم وإجبارهم على

(*) لم أجرؤ، على الرغم من تشبثي العنيد بمبدأ الترجمة العلمية/الموضوعية، ونفوري الشديد من الترجمة الإيديولوجية/الذاتانية، على نقل عبارة القس الوقحة إلى القارئ العربي. ويمكن لمن يريد الاطلاع على مدى خستها مراجعة النص الأصلي، ص205 (مترجم).

أكل طعام يحرمه الإسلام. معسكر الاعتقال في غوانتانامو أيضا، راوغ القوانين الأمريكية والتف عليها لتطبيق سياسات غير قانونية يشعر البنتاغون والبيت الأبيض أنها ضرورية. ووفقا لمجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية، ارتفع عدد الاعتداءات على المسلمات المحجبات والمساجد والمسلمين ارتفاعا كبيرا منذ الحادي عشر من سبتمبر[26].

في هذا المناخ الذي يسوده الخوف الرهابي من الإسلام، لم يكن من المفاجئ كليا ظهور صليب مشتعل خارج المسجد في برينس جورج كاونتي وأمام المدرسة الإسلامية في مريلاند في تموز / يوليو 2003. فالتذكير برموز منظمة "كوكلوكس كلان" العنصرية المعبرة عن الكراهية تجاه الأمريكيين الأفارقة في بدايات القرن العشرين، وحرق صليب خشبي بارتفاع ثلاثة أقدام، لم يكن حدثا استثنائيا بمعايير المنظمة، لكن أهميته بالغة الدلالة. وأظهر شريط فيديو من كاميرة مراقبة في المكان أن عددا من البيض شاركوا في أول عملية حرق لصليب تعلم بها السلطات في مريلاند في السنوات الثلاث الماضية. وقبل بضعة أيام، قتل طالبان مسلمان في المقاطعة ذاتها. وبعيد الحادي عشر من سبتمبر بقليل، قتل رجل من السيخ ظن قاتله خطأ أنه عربي (بسبب اللحية والعمامة) في فينيكس (بولاية اريزونا). وفي الينوي، دمرت متفجرة شاحنة مغلقة تملكها إحدى العائلات المسلمة.

في الولايات المتحدة، يستحضر حرق الصلبان وخطاب الكراهية أيضا الجدل والصراع على الهوية الأمريكية والشعور بالذات، في تعبير عن معركة مستمرة خاضها زعماء حالمون مثل جون كنيدي ومارتن لوثر كينغ في سبيل مجتمع أكثر عدالة وتسامحا وديمقراطية. والمفارقة المركزية في حرق الصلبان تكمن في أنه يرمز إلى الكراهية، في حين يعد الصليب ذاته رمزا لا شك فيه للمسيحية، الديانة التي تحمل - بالتعريف - رسالة نبيها المسيح. ومثلما يعرف المسلمون من تقديرهم وحبهم وإجلالهم للمسيح، فهو يجسد الحب والإحسان والتراحم والتواضع. ومن نافل القول إن ممارسة أعمال القتل أو العنف باسمه تشوه تعاليمه تشويها عميقا. فضلا على ذلك، فإن مثل هذه الأعمال تضعف مبادرات ومصداقية الزعماء الأمريكيين الذين يحاولون يائسين كسب قلوب وعقول المسلمين. إن رمز حرق الصليب أمام مسجد سوف يستغله أولئك الذين يقدمون

الحجـة في العالم الإسلامي على أن أمريكا تخوض حربـا على الإسلام ذاته. ولا ريب في أن هذه الأفعال لا تساعد الأمريكيين لا في الداخل ولا في الخارج.

منـاخ العداء المهيمن قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة وصفته هاديا مبارك، عضو فريقنا، المحجبة منذ مطلع الصبا:

قبـل مدة وجيزة، حين كنا عائديـن أنا وزوجي إلى الفندق في هيرشي (بولاية بنسلفانيـا)، بعـد أن احتفلنـا بمرور عام علـى زواجنا في مطعم هـادئ، فوجئت بشاحنـة حمراء تقترب منا بسرعة ليصيح سائقها: "أيتها الحمقاء". كان الوقت ليلا ولا توجد في الشارع سيارات ولا مشاة، سوانا نحن والشاحنة. تسارعت دقات قلبـي من شـدة الفزع حين زعقـت إطارات السيـارة وهي تنعطـف بسرعة وتعبر أمامنا.

التعصـب الديني ليس أمرا جديدا علـي. كنت في الرابعة من عمري حين كان جارنا يدعو أمي "صاحبة الخرقة على رأسها" وهي تضعنا أنا وشقيقتي في سيارتها البيضاء لتأخذنا إلى الحضانة النهارية في نيو برنزويك (بولاية نيوجرسي).

وكنت في الثانية عشرة حـين صاح مراهقان يصيدان السمك قرب منزلنا في بنمـا سيتي (بولاية فلوريدا): "هل تمارسين الجنس بهذا" في إشارة إلى الحجاب الذي أرتديه.

وكنـت آخـر من خرج من المركـز الإسلامي في تالاهاسي حـين صدم تشارلز فرانكلـين بشاحنة المدخل الأمامي "ليجعل المسلمين يعرفون أنهم لن يكونوا آمنين في هـذه البـلاد"، كما اعـترف أمام السلطـات المختصـة قبل أن يـدان ويسجن فيما بعد.

إن النشـأة في بلـد يظل فيـه الإسلام دينـا غامضا يتعرض لسـوء فهم واسع النطاق وتضعه صور المرأة الخاضعة والمقهورة والمحجبة وفكرة "الحرب المقدسة" السخيفـة، في قوالب منمطة، جعلتني أعتاد النظـرة الثانية المفاجئة إلى حجابي، والطعـن العنصري في ديني، وتشويه سمعـة عرقي، والأحـكام المسبقة المتحيزة

الناجمة عن الجهل. ومع ذلك، وفر الحادي عشر من سبتمبر سياقا جديدا لمعظم التوتر المتنامي الذي يستهدف الإسلام في هذا البلد.

الصور التي لا يسبر غورها التي شهدتها صبيحة الحادي عشر من سبتمبر وسط عدد كبير من طلاب جامعة فلوريدا حين صدمت الطائرتان أحد أعظم الرموز الاقتصادية لأمتنا، ما تزال تخترق قلبي كأنما حدثت البارحة. أستطيع استحضار ذكرى كل دقيقة من ذلك اليوم الرهيب، وكل إحساس اخترق كياني، وكل فكرة حامت في وعيي، كأنني في حالة من الشلل وكأن المنطق والعقل من نتاج خيالنا وحده.

لكن كانت تلك أيضا المرة الأولى التي أدركت فيها الانزياح في موقعي كأمريكية مسلمة في الوعي العام الأمريكي. فقبل أن يسمح لي بالبكاء، أو الحزن على آلاف الضحايا الأبرياء، أو فهم المنطق الكامن وراء العنف العبثي الذي هز أركان حياتنا، وضعت في موقف الدفاع. لقد أصبح المسلمون بسرعة هدفا لجرائم الكراهية والتمييز والتحيز بسبب التعميم الجارف والشامل الذي ربط المسلمين كلهم بالإرهابيين.

تلك الأيام، حين كنت طالبة في سنة ما قبل التخرج في جامعة فلوريدا ومديرة العلاقات العامة لجمعية الطلاب المسلمين، كانت أقسى اختبار لي في الحياة، حيث تعرضت معتقداتي للتساؤل، ودِيني لسوء الفهم، وهويتي كمسلمة أمريكية للارتياب والشك. وحددت اللحظات التي مرت بعد الحادي عشر من سبتمبر حياتي عندما بدأت أستكشف الأسئلة المتعلقة بالولاء والهوية والانتماء: أين هو وطني؟ إلى أي جهة أنتمي؟ الألم المزدوج الذي عانيته كأمريكية تعرض وطنها للهجوم، وكمسلمة يتعرض دينها الآن للأبلسة والذم والطعن والتشويه، أكد هويتي المختلطة كمسلمة أمريكية.

في حين غاص المسلمون في الولايات المتحدة في تفكير تأملي ذاتي عميق، هاجم المسؤولون البارزون في الإدارة الإسلام علنا، ومع العداء السافر للإسلام في وسائل الإعلام، سادت بيئة سلبية اكتنفت فهمه. فالأمريكيون الشباب، مثل ليندي انغلند وستيفن غرين، غادروا

الولايات المتحدة حاملين في أذهانهم فكرة عن المسلمين تصورهم كمجتمع شيطاني شرير لا يرتقي حتى إلى مستوى البشر. وعملت البيئة الاجتماعية والثقافية العدائية والمعادية للمسلمين في الولايات المتحدة على تشجيع المسؤولين الأمريكيين في السلطة على التصرف بأسلوب بعيد كل البعد عن مثل الآباء المؤسسين، والتسامح والتساهل مع الأفعال والأعمال الوحشية مثل التعذيب. وفي مناخ الغضب والجهل بـ"الآخر"، سمح الأمريكيون بتشويه أعمق وأخطر للمثل الأمريكية القائمة على القبول بالآخر وحرية الدين - حتى وإن احتفظ بها الأفراد - التي كانت تحظى بتقدير كبير واحترام من المجتمع وزعمائه.

حين اقترح المذيع جيري كلاين في برنامجه وشم أجساد جميع المسلمين في الولايات المتحدة بعلامة الهلال، أو إجبارهم على حمل رباط على الذراع يدل عليهم، اتصل عدد كبير من المستمعين به مقدمين أفكارا أكثر جموحا. بعضهم اقترح معسكرات احتجاز كتلك التي خصصت للأمريكيين من أصول يابانية والمانية خلال الحرب العالمية الثانية. ووجد غيرهم حلا أسهل: "يجب ألا نكتفي بوشم جباههم بل نقلهم (في حاويات الشحن) إلى خارج هذه البلاد.. لأنهم موجودون هنا لقتلنا". لكن تبين أن كلاين يمازح المتصلين، فقد كان يتعمد العبث والخداع: "لا أصدق أن أحدا منكم يبلغ حد الموافقة على أي شيء قلته"، كما قال لمستمعيه (في 22/11/2006) عبر المحطة التي يغطي بثها واشنطن وشمال فرجينيا ومريلاند. لكن إجابات المتصلين وضحت حقيقة أشد عمقا: سنوات الكراهية والجهل فعلت فعلها. فالأحكام المتحيزة والمتعصبة على المسلمين بلغت مستويات خطرة من التشدد والتزمت.

عمل غير مسؤول

خلال مأدبة عشاء أقيمت في عمان جرت فيها مناقشة فضيحة أبو غريب، ذكرني المضيفون بالمعايير الأخلاقية الرفيعة التي يتوقعها الإسلام من المسؤولين في السلطة. وكانوا على حق. فالنماذج الإسلامية التي يحتذى مثالها، كالنبي وأبي بكر وعمر وعلي، تصرفوا جميعا بنبل وشهامة مع الأسرى. وضع أبو بكر أسس التصرف في الحرب للمسلمين، التي تمنعهمكما ذكرنا آنفامن إلحاق الأذى بالنساء والأطفال وغير المحاربين، وحتى الرهبان والقساوسة والأحبار. ومن المحظور تماما اقتلاع الأشجار وتخريب الزرع. المذبحة التي

وقعت في القدس عام 1099م - حين قتل الصليبيون، وفقا للروايات المسيحية، الآلاف وبلغ نهر الدم في الشوارع ركاب الخيل - أثارت غضب العالم الإسلامي وهيجت التشوق إلى الانتقام والثأر. لكن صلاح الدين، بعد الاستيلاء على القدس وهزيمة الصليبيين عام 1187، أثبت شهامته ونبله ورحمته حين سمح للأغنياء بدفع الفدية ودفع فدية فقراء الصليبيين الأسرى من ماله الخاص.

في المحاضرة التي ألقيتها في عمان، أشرت إلى أن عاطفة الغضب ليست معيارية على الرغم من سيطرتها على الأمريكيين بعد الحادي عشر من سبتمبر. فقد حذر بنجامين فرانكلين، أحد الآباء المؤسسين، أمته من أن "كل ما يبدأ بالغضب ينتهي بالعار"[28]. أما ما يتعلق بالفضائح في السجون الأمريكية، فقد رويت قصة جورج واشنطن خلال الثورة على البريطانيين. فحين أسر البريطانيون الجنود الأمريكيين، الذين كانوا "متمردين" في نظرهم، ألقوا بهم، وبينهم مرضى وجرحى، في سجون باردة ورطبة دون أي أمل بفك أسرهم أو معاملتهم بعدل. وبالمقابل، فعل القائد العام للقوات الأمريكية، الذي كان يحارب في سبيل الاستقلال ومعرضا للهزيمة، ما بوسعه لضمان أن يعامل الجنود البريطانيون الأسرى بكرامة وعدالة على الرغم من الرغبة بالثأر والانتقام. فقد أمر ضباطه قائلا: "عاملوهم بإنسانية، ولا تدعوهم يشتكون من أننا نسخنا المثال الوحشي للجيش البريطاني"[29]. فهم واشنطن أن إساءة معاملة الجنود البريطانيين لن تؤدي إلا إلى الحط من المستوى الأخلاقي لقضيته، وسوف تلطخ شخصية وسمعة أمته الجديدة. وستؤدي أيضا إلى تبعات وعواقب تزيد بعشر مرات عن سوء المعاملة ذاته. ومن ثم، وجب على الحكومة وأركان السلطة - برأي واشنطن - التشبث بمعيار أخلاقي رفيع، كما عبرت عنه الكلمات التالية المنسوبة إليه: "الحكم ليس المنطق والعقل، ولا البلاغة والفصاحة، إنه القوة؛ وعلى شاكلة النار، فهو خادم يزعج وسيد يخشى جانبه. ويجب ألا يترك لحظة للعمل الطائش وغير المسؤول"[30].

وفر غزو العراق والتطورات اللاحقة دراسة حالة جيدة لكيفية إدارة الحرب في عصر العولمة. ففي نظر معظم الأمريكيين، كانت إزاحة صدام حسين تعني إحداث تغيير فوري عن أسلوب إدارة العراق في الماضي. وسوف تزدهر الانتخابات الحرة

والديمقراطيـة وحرية الـكلام والتعبير، ويسـود الأمن والأمان والعدالـة للجميع. وأعلن الرئيس بوش بأسلوب استعراضي صداح: "أنجزت المهمة". وفي ثقافة المعلومات الفورية، والتوقعات الطموحة، والطرائق التبسيطية التسطيحية في النظر إلى العالم، صدق معظم الأمريكيين هذا الإعلان حرفيا.

لكـن في تلك الثقافة يفتقر الفكر والسبب والنتيجة إلى الترابط، وهذا يفسر الأفعال المتهـورة والطائشة خـارج الولايات المتحدة، كتلـك التي تورط فيها الجنـود الأمريكيون دون تفكـير كاف بالتبعـات والعواقب. وفي حـين أن معظمهم تصرفـوا بشجاعة ونزاهة، لكـن بضع "تفاحات فاسـدة" لطخت سمعة الجيش وعرضت مُثـل أمريكا كلها للشبهات والخطر. ولربما لخص إنكار دونالد رمسفيلد لنهب آثار وكنوز متحف بغداد موقف قادة البنتاغـون والبيت الأبيض. فعندما قيل لـه إن آثارا قديمة لا تقدر بثمن كانت تنهب علنا علـى مرأى ومسمع الجنـود الأمريكيين في بغـداد، هز كتفيه استخفافا وقـال: "لا بد أن تحدث أشياء كهذه"[31].

وربمـا حدد موقف الرئيس بوش نبرة إدارته وأسلـوب عملها. ففي كتاب بوب ودوارد الثالث عن ولاية بوش الرئاسية، "حالة إنكار"، بعض الحالات الكاشفة المذهلة، أوضحها التعليمات التي أصدرها إلى كبير جنرالاته الذي أرسله إلى العراق كرئيس للإدارة. فحين نظـر الجـنرال جاي غارنر إلى لائحة الأهداف، أجاب بأنه لا يمكن أن يأمل بتحقيق أكثر مـن أربعة منهـا. لكن التوضيح الرئاسي جاء بصيغة إجابة لا لبس فيها: "استخدم القوة وتصرف بطريقة عدوانية"(*)[32].

بدأت الكارثة المحتومة في العراق في اللحظة ذاتها التي أشار فيها الأمريكيون إلى تحقيق أول انتصـار. فالقـادة في التاريخ، من الاسكنـدر إلى يوليوس قيصـر إلى نابليون بونابرت إلى دوايـت ايزنهـاور، أصدروا التعليمات إلى مرؤوسيهم فيمـا يتعلق بكيفية إدارة الأراضي (المحتلـة) بعـد فتحها، لكـن لم يحدث في التاريـخ أن اختزلت تعقيدات الهويـات القبلية / العشائريـة، والطائفيـة/ المذهبية، والدينيـة والسياسية في واحدة من أكـثر مناطق العالم فوضـى واضطرابـا، في عبـارة واحدة. ويبدو أن عبـارة بوش المختصرة تعـبر عن مفرداته اللغوية وفلسفته كما تعبر عن عصر العولمة، الذي يتطلب تقليص واختزال حتى أشد القضايا

(*) العبارة التي قالها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية هي: "Kick ass، Jay"، وتعني حرفيا: "اركلْ المؤخرة يا جاي!". (م)

تعقيـدا إلى عبـارات وجمل مسطحة وبسيطة وواضحـة. إذ إن الأمركة والعولمة، اللتين تعبر إحداهما عن الأخرى بالعديد من الطرق المعقدة، تشجعان هذا الاختزال المعيب.

وحتى إذا تعذر على الأمريكيين رؤية ما خسروه في هذه الكوارث، فإن البلدان الأخرى أعلنتـه، ملاحظة أن الولايات المتحـدة فقدت مصداقيتها. على سبيـل المثال، حين طلب الرئيـس بوش من الرئيس فلاديمير بوتين في قمة الثماني الكبـار (موسكو، تموز/ يوليو 2006) تنفيذ مزيد من الإجراءات الديمقراطية، أجاب الرئيس الروسي: "نحن بالتأكيد لا نريـد.. النـوع ذاته مـن الديمقراطية التـي يطبقونها في العراق"[33]. فمـا إن تعرض مبـادئ مثل حقوق الإنسان وحكم القانون للشبهة والخطر، حتى يصعب أن تتحدث عنها مـرة أخـرى بوصفك مرجعية وأهلا للثقة. لقد فهم جورج واشنطن هذا فهما جيدا، لكن لسوء الحظ خسرت الولايات المتحدة الآن سمعتها وفضيلتها في نظر المجتمع الدولي.

من الحـوادث التي ساهمت مساهمـة مهمة في تلك الخسارة، حادثـة ستيفن غرين، الجنـدي في الفرقـة 101 المحمولـة جـوا، المتهـم الآن – وفقـا لتوكيد مكتـب التحقيقات الفيدرالي – باغتصاب فتاة عراقية في الرابعة عشرة، ثم حرق جثتها لطمس معالم جريمته في قرية المحمودية جنوب بغداد (آذار/ مارس 2006). واتهم أيضا بقتل ثلاثة من أفراد عائلتها، وفيهم طفلة في الخامسة. وخلافا لمذبحة ماي لاي خلال حرب فيتنام، التي عدت حادثة محصورة في إطار جنون اللحظة، قضى غرين وثلاثة من رفاقه عدة أيام يخططون لاصطيـاد الفتاة ودفعها إلى الفـخ المنصوب كما يفعل الصيـادون في الغابة عند مطاردة حيوان يريدونه. وفي الثاني عشر من آذار/ مارس، سكر غرينرئيس العصابةحتى الثمالة، وتـرك مع أفرادها نقطة التفتيش، وغيروا ملابسهم حتى لا يتعرفهم أحد، ثم توجهوا إلى منـزل الضحية. في نهاية المطاف، حـين وقف المجرمون أمام محكمة عسكرية في الولايات المتحـدة، بـدوا غير نادمـين على فعلتهـم. وحين سئلوا عـن سبب ارتكاب هـذه الجريمة الشنيعة، أجاب أحدهم: "لأنني كرهت هؤلاء العراقيين يا سيادة القاضي"[34].

ليسـت التصرفـات اللامسؤولة التي قـام بها ستيفن غرين ولينـدي انغلند الحالات الوحيدة من هذا النوع. بل تكشفت قضايا مشابهة أخرى، مؤكدة تغير شيء ما في المجتمع الأمريكي وانحطاط معاييره الرفيعة إلى ما دون تلك التي رسخها الآباء المؤسسون.

الوجه الآخر من العملة نفسها

بعد ثلاثة أشهر من الحادثة الفظيعة في المحمودية، كان ثلاثة جنود أمريكيين تابعين لوحدة غرين يسيرون بلباس الميدان الكامل في دورية على طريق ترابية جنوب غرب بغداد في قرية اليوسفية. فجأة سمع الجنود طلقات الرصاص فاحتموا منها فانفصلوا عن باقي أفراد كتيبتهم. وخلال المناوشة التي أعقبت ذلك، أسر جنديان وقتل الثالث. ثم ظهر شريط فيديو لمجلس شورى المجاهدين، وهو فصيل تابع للقاعدة كما يقال، عرض جثتين داميتين ممددتين على حافة أحد الجسور. وصف تقرير لوكالة اسوشييتدبرس الفيلم الذي بلغ طوله 4:39 دقيقة بتفصيل مروع: "كانت إحداهما عارية جزئيا ومقطوعة الرأس ومفتوحة الصدر. في حين ملأت الكدمات والخدوش وجه الأخرى، وكسر على ما يبدو الفك وظهرت على الساقين جروح بليغة. وظهر المقاتلون وهم يقلبون الجثتين ويحملون الرأس المقطوع"[35]. ووفقا لبيان مجلس شورى المجاهدين، صور شريط الفيديو "انتقاما لأختنا التي اعتدى على شرفها جندي من اللواء ذاته". لقد قرر المجاهدون القيام بهذا العمل الوحشي حالما سمعوا بجريمة الاغتصاب / الذبح، لكنهم "كظموا الغيظ ولم يذيعوا الخبر. وبيتوا نية الثأر لشرف أختهم".

في حين أن الغضب متجذر في صميم أفكار الشرف والثأر، إلا أن مثل هذا العنف يمثل خروجا على القيم الجوهرية في الإسلام. لقد واجه علي بعد أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع وصهر النبي وابن عمه، معضلة مشابهة في صراعه مع أحد مقاتلي العدو، حين طرحه أرضا ورفع سيفه ليقضي عليه. عند هذه النقطة بصق خصم علي، فما كان منه إلا أن نهض وابتعد عنه، وهذا ما أدهش جنود الجيشين المتقاتلين. وفيما بعد فسر علي الحادثة بالقول إنه لو قتل عدوه، لفعل ذلك نتيجة فورة غضب، لا بسبب معارضة قوى البغي والظلم التي كان يقاتلها. ولا شك في أن حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر - بكل ما يسودها من انتقام وثأر وعار وعنف لا مبرر لها أبعد ما تكون عن مثل علي بن أبي طالب وجورج واشنطن.

لا يقتصر تخلي الناس عن المُثل على ساحة المعركة فقط. فقد لاحظت الاختلافات الواهية في "الصدام" بين الإسلام والغرب من زاوية أخرى في القاهرة في كانون الأول/

ديسمبر 2005. فمع أن بعضا من أبرز المفكرين الذين قابلتهم في مصر - إسماعيل سراج الدين في مكتبة الإسكندرية، وسعد الدين إبراهيم في مركز ابن خلدون، وسلامة شاكر في وزارة الخارجية في القاهرة - أنكروا فكرة الصدام الحضاري، إلا أنني شاهدتها متمظهرة في سيارة الأجرة التي ركبتها.

في القاهرة، أوقف صديقي المصري سيارة أجرة من أجلي وأخبر السائق بالعربية اسم وعنوان الفندق. وفي الطريق رفع السائق صوت القرآن الذي كان يستمع إليه. ثم بدأ يرتل بنفسه بصوت مسموع ويسبح بإحدى يديه. في حين كانت تتدلى من المرآة أمامه آيات من القرآن. سيارات الأجرة في مصر صغيرة الحجم منخفضة السقف، ويمكن لضيقها أن يسبب رهاب الاحتجاز ويفاقمه الصوت المرتفع.

وبوصفي مسلما، لا أجد كثيرا من الأشياء أمتع لأذني من سماع القرآن مرتلا. لكن حسبني السائق، بسبب ملابسي الإفرنجية ولغتي الإنكليزية أجنبيا وربما غير مسلم. فلمَ إذن رفع صوت القرآن بهذه الطريقة العدائية تقريبا أمام شخص عده غير مسلم؟ هل كانت محاولة لترهيبه؟ أم للتعبير عن اعتزازه بهويته الإسلامية؟ هل هو الغضب المتراكم على الفقر واليأس من الحياة، والهوة الواسعة بين حياة النخبة الحاكمة الفاسدة وحياة الفقراء؟

حين بلغ صوت التلاوة حدا يصم الأذن، حاولت تلطيف الجو المتوتر بتكرار بعض الآيات القرآنية التي أحفظها. وحين رأيت السائق يحدق إلي في المرآة، أعلنت له أنني مسلم من باكستان. فتغير موقفه مني على الفور. وقال مبتسما ومرحبا إن الباكستانيين مسلمون متمسكون بدينهم، ومد يده ليخفض الصوت.

إحدى طالباتي الأمريكيات التي درست في القاهرة - وكانت فتاة ذكية شقراء زرقاء العينين - اشتكت أن معظم سائقي التاكسي يلمحون إليها تلميحات جنسية عندما تكون وحيدة في السيارة. في القرآن والمجتمع العربي على حد سواء، تعامل النساء باحترام، ويتجنب الرجل النظر مباشرة إلى وجه المرأة خشية على حشمتها. لكن في رأي طالبتي، كان الرجال الذين يتحرشون بها جنسيا يمثلون خطرا. وكانت تذكرهم بأن الله أمر الرجال والنساء بالحشمة وغض البصر، وأن الله سيعاقبهم. لكن ذلك ألهب على ما يبدو

العواطـف والأهواء في قلوب الرجال العاشقـين. فقد حسبوها متيمة بالجنس مثل اللاتي يشاهدونهن في الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية. طالبة أخرى أمريكية هندية الأصـل، سوداء الشعر والعينـين، لم تواجه مشكلات مشابهة، نظـرا لأن الناس وجدوها "محلية" ولم يضعوها في القوالب المنمطة المحفوظة عادة للأمريكيات الشقراوات.

فيمـا يتعلـق بي، كشـف سائق الأجـرة - ومررت بعدة تجـارب مشابهـة في سيارات الأجرة - جانبا آخر من المواجهة المعقدة بين الغرب والإسلام. شعرت أن هنا واحدة من نقـاط الاتصال القليلة في منطقة محايدة بـين المسلمين والأجانب حيث يمكن للمسلم أن يعـبر عن مشاعره بعيـدا عن أجهزة الأمن والشرطة. ولو كنت غير مسلم، لجعلني اللقاء أشعر بالقلق بـل حتى بالتعرض للترهيب. وبذلك أصبحت سيارة الأجرة خط الجبهة في المواجهـة بين الإسلام والغرب. أي حالة ليندي انغلند في أبو غريب معكوسة. فعلى شاكلة انغلنـد وجماعتهـا، كان سائق سيارة الأجرة يشوه ويحرف مُثـل ثقافته ويلهب المواجهات المشحونـة والقاسية والعنيفة غالبا بين الحضارتين. وفي سبيل فهم التطورات الجارية في العالم الإسلامي، يجب أن نعاين المجتمع الراهن فيه والعوامل التي تساهم في تكوينه.

على الجبهة السياسية، مثلا، يستخدم المسلمون الانتخابات المحلية للرد على ما يعدونه هجومـا من الغرب، حيث يصوتون لمصلحـة الأحزاب الإسلامية، التي هـي أشد انتقادا للغـرب من الأحزاب الأخـرى. ويمكن ملاحظة هذه النزعة حتـى في المقاطعة الحدودية الشماليـة - الغربية في باكستـان، التي حافظت طوال القرن الماضي على توازن دقيق بين عـدد من القـوى السياسية. ولم تحرز الأحـزاب الدينية - التي دعتهـا الأحزاب الأخرى جماعيا وبأسلوب ازدرائي إلى حد ما بـ"الملالي" - أكثر من نسبة تراوحت بين 15. 20% من المقاعد في البرلمان الإقليمي. وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 - مع بدء تصاعد الهجمات على الإسلام في الولايات المتحدة، بقيادة شخصيات دينية بارزة، مثل فرانكلين غراهام وبات روبرتسون وجيري فاينز وجيري فالويل - وجد "الملالي" فرصتهم السانحة. ففـي الانتخابـات التالية اقتحمـت الأحزاب الدينيـة المعترك السياسي عـبر إعلان أنها ستحـارب في سبيل شرف وعزة الإسلام، في حين تراجع الآخرون وقبلوا التسويات. كانت المشاعـر المناهضة لأمريكا على درجة من القـوة بحيث فازت الأحزاب الدينية هذه المرة

بكل مقعد تقريبا في البرلمان، مكتسحة زعماء القبائل والأعيان الذين لم يكن بمقدور أحد هزيمتهم من قبل. ونتيجة لذلك، بدأت المناطق القبلية في المقاطعة، الممتدة على طول الحدود الأفغانية، بمخالطة الطالبان، ويشاع بأن أعدادهم تتزايد في المنطقة إلى جانب أسامة بن لادن والقاعدة. وقبل مرور وقت طويل، خضعت أجزاء من الإقليم بصورة مباشرة إلى سيطرة المتعاطفين مع الطالبان. واعتمادا على هذه الميزة الاستراتيجية، أصبح الطالبان يمثلون تهديدا جديا للقوات الغربية المتحالفة في أفغانستان. ولا ريب في أن أسباب هذه الأحداث تعود إلى الهجمات المتهورة والطائشة التي تشن على الإسلام ونبيه، ومن ثم تعريض حياة ومصالح الأمريكيين للخطر الداهم.

سرعان ما امتدت المواجهة بين الإسلام والغرب إلى مجالات أخرى أيضا. فقد أصبحت السياحة العالمية في بالي (بإندونيسيا) هدفا للهجوم، وهذا ما فاقم حدة التوترات في مجتمع يعاني التوتر أصلا حيث يعيش المسلمون كأقلية في جزيرة غالبية سكانها من الهندوس. وكان غزو السياحة العالمية القشة التي قصمت ظهر البعير للمسلمين المهددين ثقافيا ودينيا، خصوصا مع إعلان مجلة "بلاي بوي" عن نيتها إصدار نسخة إندونيسية، وتفجر جدل خلاف حاد فيما يتعلق بكيفية التعامل مع الأزمة والمدى الذي يسمح فيه لثقافة خارجية أن تؤثر في القيم الإندونيسية.

حين كان فريقنا على وشك مغادرة بالي، عثر على مقالة من صفحتين في مجلة "تايم" تتناول القوانين المتعلقة بالإباحية في إندونيسيا[36]. فالمسلمون في إندونيسيا يشاهدون رجالا ونساء شبه عراة على الشواطئ أو يرقصون ويشربون الخمر في نوادي الرقص، وهذا ينتهك قواعد الحشمة الإسلامية. كان صدام الثقافات هذا وراء تفجير ملهى ليلي في بالي عام 2002 خلف عدة مئات من القتلى. ليو باتوبارا عضو مجلس الصحافة الإندونيسي قال آسفا في مقالة "تايم": "ربما نسير على درب طالبان".

التوترات بين مطالب الإسلام المثالي وموجة العولمة الكاسحة التي تتعذر مقاومتها، بقوالبها المنمطة المؤثرة، لاحظتها أمينة، الشابة المسلمة المختصة بالأنثروبولوجيا، في جولة قامت بها في بالي "للحصول على إحساس أنثروبولوجي حقيقي" بثقافتها:

قمنـا بجولة نظمها الفندق لمشاهدة الرقص الهندوسي التقليدي الذي يصور قصة راما وسيتا. كان دليلنا هندوسيا متشوقا إلى التعبير عن معرفته ببالي باللغة الإنكليزية.. سألته أن يفسر لنا من منظوره الخاص سبب تفجيرات بالي، فأجاب إن بالي كانت مكانا هادئـا وآمنا تهيمن عليه الأفكار الهندوسية والبوذيـة القائمة على الوجود المتناغم، إلى أن.. توقـف عـن الكلام وعبس مستنكرا وأشـار إلى ذقنه الحليقة ورأسـه في دلالة على اللحية الطويلة والعمامة، قاصدا بذلك المسلمين.

موكـب ديني هندوسي يعبر أحـد شوارع بالي، مع أن إندونيسيا أكبر أمة إسلامية والغالبية الساحقة من سكانها من المسلمـين. كانت بـالي، تقليديا، جزيرة هادئة وآمنة، لكنهـا شهدت في السنوات الأخيرة أعمـالا إرهابية استهدفت الثقافة الغربية الغازية.

وجـدت، كمختصة في الأنثروبولوجيا، تعليق الدليل الهندوسي مفاجئا ولافتا ومعبرا عـن إدراك منتشـر عن المسلمين في بـالي. فهي "جزيرة الفردوس" مـن النوع الذي نراه في أفـلام هوليـود أو نقرأ عنه في الروايات. فشواطئها الحالمـة، والأجساد الممددة بثياب البحـر، وأشجار النخيل وزهـور الأوركيد، والشمس المشرقة والمناخ المـداري، والنوادي الليليـة والفنادق الحديثـة الفخمة، تثير المشاعـر والأحاسيس وتعطي السيـاح إحساسا بأنهـم يرتعون ويستمتعون بـكل وسائل الراحة في هذا العالم. لكن هذا الفردوس الأرضي

هو الذي يؤذي على ما يبدو مشاعر بعض الجماعات التي يعد أفرادها أنفسهم محاربين ومجاهدين في دنيا زائلة مؤقتة لتفادي السطحية والتفاهة، والمتع الحسية والملذات الجسدية، والرغبات الشهوانية. يمثل المسلمون أغلبية سكان إندونيسيا، لكنهم أقلية في جزيرة بالي، حيث معظم السكان من الهندوس والبوذيين. ومن بين هذه التشكيلة المتنوعة من سكان إندونيسيا، هنالك جماعات إسلامية متشددة على استعداد لبلوغ أقصى حد وتنفيذ عمليات انتحارية في النوادي الليلية والمراقص كشكل من أشكال الاحتجاج على أسلوب الحياة الموصوف في سيناريو "جزيرة الفردوس".

أكبر أحمد (إلى اليسار)، وأمينة أحمد ابنته الكبرى المختصة هي أيضا بالأنثروبولوجيا (في الوسط)، وهيلي ولدت (إلى اليمين)، يقفون مع اثنتين من الراقصات اللاتي يؤدين رقصة القرد التقليدية المستمدة من النصوص الدينية الكلاسيكية.

نقطة المجابهة التي تعد أشد حدة ودرامية بين الغرب والإسلام تتعلق بالجانب اللاهوتي من الدين، خصوصا منذ نشر سلمان رشدي كتابه "آيات شيطانية" عام 1988، والرسومات الكرتونية الدنمركية المسيئة للرسول، والملاحظات المثيرة للتساؤل والشك التي أدلى بها البابا بنيديكت السادس عشر. في نظر الغرب – وأولئك الذين يثمنون حرية التعبير وحرية الكلام – يعد حق الفرد في قول أو كتابة ما يريد أمرا جوهريا للحضارة ذاتها. أما في نظر المسلمين فإن أي صيغة من صيغ انتقاد النبي تعد انتهاكا

خطـرا وتعديـا جديا. ولأن النبـي نقل كلام الله المقدس، القرآن، فـإن أي إهانة (أو ما يـدرك بوصفه إهانـة) توجه إليه تعد هجومـا على الدين والنبـي في آن معا. فضلا على ذلـك، ولأن المسلمين يجلون النبي ويحبونه كأب وزوج وقائـد ملهم في أوقات الشدة، فإن علاقـة حـب وإجلال شخصيـة تربط المسلم بالنبـي، كأنه فرد من أفـراد عائلته. يفسر هـذا الحب الشديد وهذه الشخصنة في العلاقة الرد العاطفي/ الوجداني على الهجمات والإسـاءات للرسول، التي يعتقد المسلمون أنها تشير بدلالتها إلى أن الغرب يدين وينتهك جوهـر هويتهـم الدينية والثقافيـة والشخصية، ومن ثم أفكارهم عـن الشرف والكرامة والعزة.

جوناثـان هايـدن يتآلف مع "سكان" معبد القرود المقدسة. يجل الهندوس القرود، إضافة إلى غيرها من المخلوقات، التي قدمتها النصوص الدينية المقدسة بطريقة إيجابية.

وفي حـين رغب المسلمـون في حرية الكلام، إلا أنهم أكـدوا أيضا الحاجة إلى احترام معتقـدات وتقاليد الآخرين. وهم يدركون الحدود المقيـدة لحرية الكلام لأن أي تعليقات طائشـة وتحقيرية في مجتمعاتهم المتعددة الثقافـات والديانات، قد تفضي إلى المجابهة. حتـى في الولايات المتحـدة، أثارت ملاحظـات ميل غيبسـون المعادية للساميـة، وكلمات مايـكل ريتشاردز العنصريـة عند مخاطبة الشبـان الأمريكيين الأفارقـة (نعتهم مرارا

بـ"الزنـوج") عـام 2006، غضبا وحنقـا يمكن تفهـم دواعيهما. مثل هـذه الملاحظات الكريهـة تذكرنا جميعا بطبيعة التعصب والتحيز. لقد عانى الأمريكيون الأفارقة واليهود الأمريـن وتعرضوا للاضطهاد في الماضي بأساليب مختلفة وفي سياقات تاريخية متباينة. وليـس التراحـم والإحسان والحكمة والحفـاظ على الكرامة والمسايـرة والتعاطف معهم سوى انتصارللروح الإنسانية ورفضها للخضوع والاندحار.

يلاحظ المسلمون عدم ظهور مثل هذا الغضب في الولايات المتحدة حين تعرض الإسلام لحالـة مماثلـة من الطعن والقـدح وتشويـه السمعة. وتنامـى شعورهم بأنهـم معزولون وضحايا، وهذا ما أوجد حنقا واستياء لدى العديد منهم. أما الرد العنيف في بعض أجزاء العـالم الإسلامي فيعزى أساسـا إلى توليفة جمعت الإدراك بأن الإسلام يتعرض للهجوم من الغـرب وصعود نموذج ديوباند، الذي يشدد على العـزة الإسلامية ويستحث عواطف المسلمين. وبالمقابل، يتعرض للتهميش نموذج أجمر الضعيف، الذي يؤيد النقاش الهادئ، ونمـوذج عليكره، الذي يلح على بنـاء المؤسسات والقيم الحديثة مثل حرية الكلام والولاء للدولـة – الأمـة. ولو كان نموذج عليكره هـو المهيمن لتمثلـت ردود المسلمين على الرسوم الدانمركيـة المسيئة للرسول في الانخـراط في جدل وحوار وكتابـة الرسائل. ولأن نموذج عليكـره فشل في توفـير منتدى حواري للتعبير أو لتمثيل المسلمـين، لم تعد الأمةالدولة ولا نموذج عليكره بديلا قائما في العالم الإسلامي حاليا.

متلازمة "تاج محل"

لا ينبثـق غضب ويأس المسلمين مـن إدراك أن السياسات الأمريكية مخطئة ومضللة فقـط، بل هناك شياطين جوانيـة أيضا. إذ يعاني المسلمون اليوم، خصوصا أولئك الذين يعيشـون في عواصم الإسلام التي كانت شهيرة ذات يـوم مثل استنبول ودمشق والقاهرة ودلهـي، مـا أدعوه "متلازمة تـاج محل". فبناء مثل تـاج محل يستحضـر الماضي التليد المشـرق للمسلمين. وجماله البهي حين يقارن مـع الحاضر المؤلم والتعس يطلق خلطة من المشاعـر – الاعتزاز والفخر، والألم والتبريح، والغضب والحنق: الاعتزاز بروعة الماضي، والألم من واقع الحاضر، والغضب على المستقبل الكئيب الذي يلفه الغموض وعدم اليقين. هذه هي "متلازمة تاج محل"، والمسلمون كلهم متأثرون بها بطريقة أو بأخرى: حين ينظر

أتبـاع نموذج أجمر إلى تاج محل يبصرون جمالا أثيريـا أبديا يؤكد لهم الرسالة الكونية القائمـة علـى الحـب؛ في حين يستلهم منـه أتباع ديوبانـد تجديد الكفاح وبعـث النضال لإحيـاء الماضي التليد واستعادة مجد الإسلام؛ ويرى فيه أتباع نموذج عليكره روعة وبهاء الحضـارة الإسلامية، القادرة منذ القديم على التجميـع والتوليف والامتياز، ويأملون أن تعود مرة أخرى إلى ريادة الفن والعمارة والمعرفة والعلم.

يربض تـاج محل، رمز قوة وسلطة ورحمة وعاطفة الحـكام المسلمين، وحيدا منعزلا وسـط بحر من أكـواخ الصفيح الفقيرة التي تـؤوي الحرفيين المسلمـين المفقرين الذين يزعمـون التحدر مـن نسل بناته العظام. حين زرت تاج محـل في أغرا مع فريقي، خبرت مـرة أخرى تعقيد الفكرة، وجمـال التنفيذ، وعمق الفكر الروحـاني للعمارة، الرامز إلى حضارة بلغت الأوج. المبنى يعبر عن أعظم وأبهى تركيبة توليفية تجمع التراثين الإسلامي والهندي. تاج محل يستحضر العواطف الوجدانية التي تحرك البشر – الحب، والتعاطف، والحزن – لكنه يتصل أيضا بمفاهيم الدار الآخرة ويجبر الزوار على مواجهة أنفسهم.

قدم الإسلام إلى العالم حضارة غنية شملت إمبراطوريات قوية، كالعباسية والعثمانية والصفوية والمغولية. الحكام المسلمون رحبوا بالشعوب من جميع الديانات وكانوا بين أكثر القـادة إحسانا ونفعا وتنـورا في التاريخ. واعتمادا على روح الاجتهـاد، استطاع المسلمون تكييف التقاليد التراثية الإسلامية لتتواءم مع التغييرات الجارية حولهم. التجار اكتشفوا طرقا جديدة للقوافل، ونقلوا البضائع والسلع والمنتجات بين آسيا وإفريقيا وأوروبا. "طريق الحريـر" الأسطوري الذي اخـترق آسيا الوسطى وربط الصين مع العالم الإسلامي، كان شهـادة دامغة على حضارتهم المزدهرة. ومنذ عهد النبي، الـذي اشتغل بالتجارة أيضا، حظي التاجر بمكانة محترمة في الإسلام.

تمتـع العلم والمعرفة أيضا بمكانـة سامقة. ففي ذروة الحضارة الإسلامية، قبل زهاء ألـف سنة، كانـت مكتبة البلاط في قرطبـة تضم 400 ألف كتاب، في حـين لم تكن أكبر مكتبـات أوروبا تحوي أكـثر من 600 كتاب آنـذاك. يلاحظ المؤرخ فيليـب حتي، معترفا بفضل الإسلام على الغرب بسبب إحياء الفكر اليوناني، أنه "لو ضاعت أبحاث ودراسات أرسطـو وجالينوس وبطليموس علـى الأجيال اللاحقة، لظل العالم فقـيرا كأنما لم تنتج

أبـدا"[37]. وتلقى العلم الديني التشجيع إلى جانب نمو وازدهـار الأدب الذي استكشف تعبـيرات شعريـة جديدة. وجـرى التوكيد على الحـوار والفهم المتبادل بـين أتباع نماذج أجمـر وديوباند وعليكره. أما الفلاسفة المسلمون العظام، من أمثال الإمام الغزالي، فقد عبروا عن التوازن بين النماذج الثلاثة. ولا غرو أن تمثل الحضارة الإسلامية مشعل ونور وعظمة العالم في عصرها.

تعـززت "متلازمـة تاج محل" بحالـة وسائل الإعـلام في العـالم الإسلامي. فخلال رحلتنا، شاهدنا - كما ذكرنا آنفا - لواقط المحطات الفضائية تنتصب في كل مكان، حتى في أفقـر الأحياء السكنيـة. وفي وسط هذه الأحياء المكتظة والمحزونـة والمغمومة، يشاهد المسلمون الصور المتألقة والمغرية القادمة من الغرب التي تتحدى قيمهم التقليدية - نساء عاريـات في أوضاع مثـيرة ومستفزة، وحروبا تشن على إخوانهـم المسلمين، وحياة مترفة باذخـة: كلها تدفعهم إلى اليأس وخيبة الأمل بالعـالم الخارجي أو المجتمع الذي يعيشون فيه.

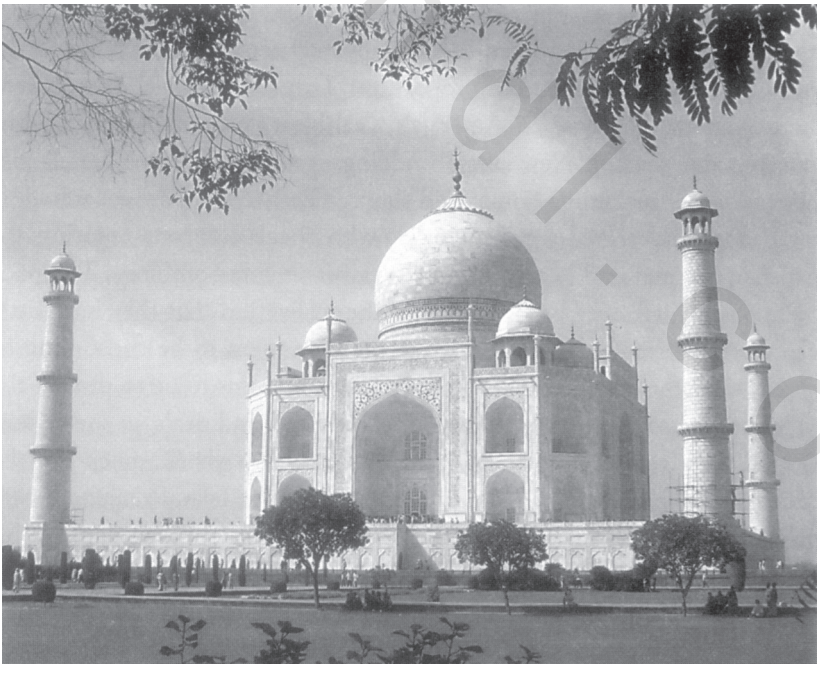

تـاج محـل الذي بنـاه الإمبراطور المغولي شـاه جيهان، يذكـر المسلمين بالماضي المجيـد المتألق. الصـراع بين ولدي الإمبراطـور، دارا شيكـوه، الصـوفي الروحـاني، واورانغزيب، الأصولي المتزمـت، يعبر عـن المجادلاتالراهنة داخل بالإسلام.

"متلازمة تاج محل" تحمل إشارة دلالية على الأزمة في العالم الإسلامي. فالزعامة والقيادة، والشخصيات المسؤولة في السلطة، والعلاقات بالدولة، والاقتصاد، وكيف ينظر الناس إلى جيرانهم ويعاملون النساء في عائلاتهم، والدين نفسه، محاصرة كلها في مزيج من العواطف المتولدة عن المتلازمة. لا تعد هذه الأزمة نتيجة مباشرة للأحداث اللاحقة على الحادي عشر من سبتمبر، مثلما يعتقد بعض المعلقين في الغرب، لكنها كانت في طور التكون طوال القرنين الماضيين. أما الغضب المتفاقم والشعور المتعاظم بالظلم لدى المسلمين في أعقاب ذلك اليوم المشؤوم من أيام سبتمبر، فقد عملا على إذكاء نار الاضطراب المشتعلة أصلا في العالم الإسلامي. أحد طلاب جامعة الفتح في استنبول وصف بأسلوب حاذق العالم الإسلامي بأنه "دب نائم واستيقظ. ومن الصعب إعادته إلى سباته".

هذا الاضطراب، مثلما وجدنا في رحلاتنا خصوصا في المدن الكبرى في العالم الإسلاميمتجذر في الفجوات الفاصلة بين النخب الغنية والفقراء، التي تتسع الآن لتبلغ حد الخطر. فالأملاك الواسعة تنتصب فيها بيوت فخمة تشابه تلك الموجودة في أغنى المناطق الأمريكية وسط أحياء الفقر ومدن الصفيح. الآن، ترتفع مباني المكاتب التجارية والفنادق العالمية فوق بحر من الأكواخ والبيوت والمتاجر المؤقتة. ويفصل بين الجانبين حراس ورجال أمن مدججون بالسلاح ويتحققون من كل من يدخل مناطق البيوت المترفة والفنادق الفخمة خوفا من العمليات الانتحارية. لا يشعر الفقراء بالإقصاء والتهميش فقط، بل بالغضب والحنق أيضا نتيجة إدراكهم لضآلة فرصة المشاركة في الكعكة الاقتصادية التي يبدو أن النخبة تلتهمها بنهم وطمع. أما ما يتعلق بالنخبة، فيبدو أن همها الرئيس ينصب على حماية المال الذي أتى من العقود والصفقات الدولية، وفي بعض الحالات من المشاريع المغامرة المحظوظة والمرتبطة بالعولمة التي تغل عائدات ربحية سريعة، مثل ظاهرة "دوت. كوم" في الولايات المتحدة. ويجري تجنب النزعة الإسلامية نحو الأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء في المجتمع بأعذار تبريرية مثل "نظرية التقطر البطيء" التي تشير إلى أن الفقراء سيحصلون في نهاية المطاف على بعض المنافع حين ينفق الأغنياء ما يكفي من المال. ونجحت العولمة في غرس واحدة أو أكثر من سماتها السامة، كالجشع مثلا، في هذه المجتمعات.

في هذه الأثناء، تزداد الشقق الصغيرة ومدن الصفيح اكتظاظا بسكانها وتتدهور أحوالها. في معظم المدن التي زرتها، كانت البنية التحتية تنهار وتتداعى تحت ثقل الانفجار السكاني والتدفق المستمر للقادمين من المناطق الريفية. وفي أفضل الحالات، عانت شبكات المياه والكهرباء ووسائل المواصلات ومرافق الرعاية الصحية من الفوضى وعدم الانتظام، وفي بعض الأحيان لم تكن متوفرة على الإطلاق. الأوضاع في كراتشي وجاكرتا مزرية ومتدهورة ومفزعة وكابوسية، ويعيش أغلب السكان في حالة من الفقر المدقع. في القاهرة، يعاني الفقراء ظروفا مأساوية يائسة دفعتهم للإقامة في المقابر.

لا يعني ذلك كله أننا لم نشاهد التأثيرات النافعة والمفيدة للعولمة خلال رحلتنا. فمستويات المعيشة أكثر ارتفاعا بالتأكيد في بعض المدن، مثل دلهي، والفجوة بين الأغنياء والفقراء تبدي بعض العلامات على التقلص. لكن على وجه العموم، لم أشاهد إلا الأغنياء يزدادون غنى من العولمة. ولربما تتحمل نخبة البلدان الإسلامية المنتجة للنفط معظم الذنب واللوم، حيث تعيش حياة أبعد ما تكون عن غالبية الأمة، وفي جوانب عديدة عن مثل الإسلام ذاته. وتتبدى "النزعة الاستهلاكية" المبتذلة للنخبة واضحة لا لبس فيها في أسلوب الحياة، واللباس، والتنقل والتحرك بحرية. ولو تخلت عن جزء يسير من مكاسبها لقضت على الفقر في العالم الإسلامي. لكنها في الحقيقة تلعق عسل العولمة وحدها.

المسلمون العاديون الذين يشاهدون النخبة لا يشاركونها رغبتها في "ركوب موجة" العولمة. قال لنا مسلم إندونيسي في الخمسين من عمره إنه رأى في المدة الأخيرة "مزيدا من الاتكال على التقانة، والمادية، والأنانية"، وهذا أدى إلى "الافتقار إلى العمل الصالح، والغدر، والتلوث بالحضارة الغربية". الخطر أصبح حقيقيا وداهما مع زيادة عدد المشاهدين للمحطات التلفزيونية عدة ساعات يوميا، ومتصفحي مواقع الإنترنت، ومشتري أحدث المنتجات التقانية (مثل iPods). فتاة إندونيسية في الثالثة عشرة قالت لنا إن التقانة جعلت "الشباب كسالى وغير مسؤول " ومتكلين على "الثقافة الفورية". ومع أن الطبقة الوسطى تبرز في أماكن عديدة، إلا أن تركيزها لا ينصب بالضرورة على إعادة إحياء وصياغة القيم الإسلامية. وما يشاهده المسلمون على شاشة التلفزيون ينفرهم ويجذبهم في آن، وهذه هي المعضلة التي يعانيها نموذج عليكره.

في حين أن كل بلد إسلامي زرناه يمكن أن يفاخر ببضعة مراكز تعليمية ممتازة، إلا أن الصورة العامة للتعليم في العالم الإسلامي محزنة وتدفع إلى اليأس. فالأرقام المقارنة التي نشرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والبنك الدولي تضع البلاد الإسلامية في أسفل السلم. وأداؤها الهزيل في المجال التعليمي يمثل مسألة تثير الغضب والانزعاج على وجه الخصوص لأن الإسلام عد طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كالصلاة كما يقول بعضهم، لكن عدد الجوائز التعليمية أو العلمية أو الفكرية التي نالها المسلمون على الساحة الدولية لا يتناسب مع عدد السكان المسلمين في العالم. ونتيجة اليأس يرسل الآباء أبناءهم إلى مدارس محدودة المرافق وحتى محدودة المناهج. في معظم البلدان الإسلامية لا تستطيع غالبية السكان تعليم أبنائهم في المدارس الخاصة بسبب أقساطها المرتفعة، في حين يعاني القطاع التعليمي الحكومي المجاني التدهور والقصور وانخفاض الطاقة الاستيعابية.

لسوء الحظ، لا يساعد تعليم أبناء النخبة الذين درسوا في الخارج المسلمين على حل مشكلاتهم الاجتماعية. فهم يعودون بالقليل من العبارات والجمل والكليشهات الغربية المبتذلة التي ترددها شفاههم، ولا يقومون بمحاولات جدية لإنشاء روابط معرفية تجمع التراث الغني لتقاليدهم الإسلامية مع المفكرين الغربيين العظام الذين درسوهم. لقد غاب تراث التفكير النقدي عن العالم الإسلامي خلال العقود القليلة الماضية. وفي الحقيقة، يبدو أن بعض المسلمين يعيشون في غبطة وهناء غير مدركين للحاجة إلى تقديم إجابات صعبة وأحيانا مؤلمة عن الأسئلة المعقدة المتصلة بالقطيعة بين الغرب والعالم الإسلامي. وكثيرا ما يكون فهمهم للعالمين سطحيا وساذجا ومقطعا ومجزأ وحتى مصنعا في الغرب. وحين سألت وزيرا عربيا بارزا في الدوحة عن كاتبه المفضل، أجاب بتكشيرة عريضة: "البروفسور برنارد لويس". ومن الواضح أنه كان غافلا عن المفارقة الكامنة في استشهاد عربي بمثل هذا الاستمتاع بمستشرق نموذجي، يتهمه العرب أنفسهم بالمساهمة في سوء فهم الغرب لثقافتهم وتاريخهم. وتساءلت هل أفرز عمل إدوارد سعيد المهم، "الاستشراق"، أي تأثير في النخبة المسلمة!؟

وبوصفي مسلما ترعرع في التيار الغالب لنموذج عليكره، أدهشني انحطاطه البطيء وتراجعه التدريجي الثابت خلال العقود الأخيرة. فمن الصعب أن نتخيل الآن أن المسلمين

نشطـوا في ربط تقاليدهـم التراثية مع ظروف الحاضر، ضمن إطـار الاجتهاد (التفكير الإبداعـي) الذي حض عليه الإسلام. فهؤلاء المسلمـون كانوا رواد التغيير وقامات فكرية سامقـة، لهم معجبون في الشرق والغرب. وأسماؤهـم اليوم مكللة بالمجد والغار – محمد عبده وجمال الدين الأفغاني (في الشرق المتوسط)، السير سيد ومحمد علي جناح ومحمد إقبـال (في جنوب آسيا). لم يكن هـؤلاء المفكرون يعيشون معزولين في أبراجهم العاجية. وكانت أفكارهم دافعا محفزا للتغيير الذي أثر في حياة ملايين الناس.

مـا هـو واضح أن نموذج عليكره للقيادة نخره الفسـاد وأصابه التشوه خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وفي حين أن أتباعه سعوا بدأب لإقامة نظام سياسي إسلامي ديمقراطي وعصري اعتمادا على الأنظمة القانونية الغربية، فقد أجبرتهم ضغوط الحرب البـاردة على الاختيار بـين المعسكرين الاشتراكي أو الرأسمـالي. الانضمام إلى أحدهما كان يعنـي الحصول على المعونات والأسلحة والدعـم الدولي، لكنه أدى أيضا إلى الاتكال علـى مصدر هـذا الدعم والافتقـار إلى المسؤوليـة والمحاسبة أمام مواطنـي الدولة. أما أنظمة الحكم القمعية الناتجة عن ذلك كله فقد أعاقت تطور مجتمعات إسلامية حداثية حقيقيـة. على سبيل المثال، كان جمال عبد الناصر بطل القومية العربية في الخمسينيات والستينيـات، لكنه لجأ إلى أساليب التعذيب والإعدام عند التصدي للمسلمين المتشددين مـن أمثال سيد قطب، الـذي أصبح شهيـد الإسلام الجهادي بعـد إعدامه عام 1966. أعمال القمع هذه زادت تطرف وتشدد شريحة واسعة من السكان وسوف تتردد أصداؤها في العقـود التالية مع كل خطوة خاطئة اتخذها ما يسمى بالزعماء الديمقراطيين، الذين تخلوا عن نموذج عليكره.

ثمـة عامل آخر عرقل تطـور الديمقراطية في معظم البلدان الإسلامية تمثل في وضع الجيش الأكـثر تنظيمـا وتدريبا من أي جـزء آخر مـن المؤسسة، وهذا ما منـع وأقصى الأنظمـة الديمقراطيـة للحكم. هنالك جانب أكثر شؤمـا وترويعا في غياب الديمقراطية أيضـا. فأجهزة الأمـن والاستخبارات تستخـدم الآن على نطاق واسع لحـث السياسيين والمنتقديـن للحكومات على الانتظام في الصف. ويمكن للأساليب التكتيكية أن تراوح بين الاغتيـالات والابتزاز السافـر والمباشر واختطاف أفراد عائـلات المعارضين. ومؤسسات

الجيش المختصة بمكافحة الفساد أو محاربة الإرهاب أصبحت الآن أشد السلطات القاهرة قمعا وإجبارا وإكراها لكسب تأييد السياسيين المترددين، وهذا سمم الجو العام تماما كما حدث في عهد صدام حسين. وفي نهاية المطاف، لا يحكم الديكتاتوريون إلا بالخوف. وحين يسيطر على الناس إلى حد منعهم من الوقوف والتعبير عن رأيهم بسبب ما يحدث للمنتقدين والمعارضين، تتعرض الديمقراطية لمزيد من العراقيل المحبطة. وحتى حين تكون الديمقراطية حاضرة، تنزع الأحزاب السياسية إلى الانتهازية والفوضى والتفكك وتغيير الولاءات بسهولة عند عقد صفقات تكون أفضل وأكثر فائدة. حين شنق العسكر أكثر زعيم سياسي باكستاني شعبية، ذو الفقار علي بوتو عام 1979، توقع الناس عاصفة مدوية من ردود الأفعال، لكن لم يحدث الكثير وسارت الحياة كالمعتاد. امتدح الديكتاتور الجديد بوصفه المنقذ المخلص، وحكم بقبضة من حديد طوال عقد من السنين، إلى أن قتل في انفجار غامض دمر طائرته وهي محلقة في الجو.

ساهم فشل القوى الدولية وضعف الزعماء المسلمين وعجزهم عن حل مشكلات الفلسطينيين والكشميريين والشيشان القديمة العهد، والآن العراقيين والأفغان واللبنانيين، في تفاقم غضب المسلمين. فالتطورات السياسية التي حدثت خلال القرن الماضي تركت ملايين المسلمين لاجئين ونازحين عن أوطانهم وبيوتهم، يحاصرهم اليأس وعدم اليقين. وصب انحطاط وركود وغياب القيادة الأخلاقية والمعنوية الزيت على نار الغضب والإحباط لدى المسلمين، وهذا ما غذى وقوى نموذج ديوباند.

عبر معظم المسلمين الذين التقى بهم فريقنا عن الاستياء والسخط على الأوضاع الراهنة وتشوقوا إلى التغيير. وبغض النظر عن توجس وتخوف المعلقين في العالم الإسلامي من غزو أفغانستان والعراق بقيادة الولايات المتحدة، فقد تشبثوا بأمل انبثاق حقبة جديدة من الديمقراطية يشهدها هذان البلدان وتحسن حياة مواطنيهما. وظهر خطاب حماسي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المدنية في أعقاب الغزو. لكن لسوء الحظ، تمثل التحدي الأعظم لكابول وبغداد في الحفاظ على الأمن والنظام. وبدد الانهيار السريع للمجتمع وتفككه وتفجر النزاعات الدموية وأعمال القتل العشائرية والقبلية والمذهبية أي أمل باق بالتجربة الديمقراطية، خصوصا بعد فضائح الأعمال

الوحشيــة التي يرتكبها الجنــود الأمريكيون بحق المدنيين من الســكان المحليين. وتحولت حالــة عدم اليقين وغموض المستقبل إلى يأس كاسح ثم غضــب ساحق. ومهما بلغ مقت وكره الناس للطالبان في أفغانستان وصدام حسين في العراق، فقد أخذوا يشعرون بالحنين إلى عهدهمــا حيث عاشوا في نوع مــن الأمان والاستقرار. وهكذا، أدت محاولات الولايات المتحــدة لتحسين وتلميع صورتها إلى تدهور مكانتها الآن إلى الدرك الأسفل لتصبح أسوأ في نظر الناس من أكثر الحكومات الدينية أو الديكتاتورية قسوة ووحشية.

"عار عليك إن خدعتني مرة - وعار علي إن خدعتني مرتين"

في حــين ساعد ديــك تشيني ودونالد رمسفيلــد الرئيس رونالد ريغــان - مع نصائح مــن كيسنجر وبرنــارد لويس - على تغيير العالم نحو الأفضل عــبر إسراع انهيار الاتحاد السوفييتي قبل ربع قــرن من الزمن، لكنهما وضعا سياسات متناقضة فيما يتعلق بالعالم الإسلامــي نعاني عواقبها اليوم. وحتــى مع نهاية الحرب الباردة، بقيــت سياسات حقبة الحــرب الباردة تجاه العالم الإسلامي على حالها، ويعود جزء من السبب إلى استمرارية اللاعبين أنفسهم، مع النظرة ذاتها إلى العالم.

مــا يزال تشينــي ورمسفيلد وبــول ولفوويتز وكيسنجــر يهيمنون ويحــددون السياسة الخارجيــة الأمريكيــة الموجهةكمــا كانتنحــو "الــدول المسببــة للمشــكلات": الأراضــي الفلسطينيــة، والعــراق، وسوريــة، وإيــران[38]. وتبقى علاقــات الولايــات المتحدة بهذه البلدان إشكالية حتى بعد عقود من التدخلات الأمريكية. والسياسات والتكتيكات نفسها التي فشلت مع هــذه البلدان الإسلامية في السابق يستخدمها القادة الأمريكيون أنفسهم مرة أخرى. أما فرص الحصول على نتيجة مختلفة هذه المرة فليست كبيرة.

بوجه عام، تعتمد السياســات الأمريكية تجاه العالم الإسلامي على افتراض إمكانية تقسيم الزعمــاء المسلمين إلى معسكريــن: "المسلمون المعتدلــون والمسلمون المتطرفون". ويُعتقــد أن قادة المعسكــر الأول يريدون توثيق الروابط مع الغــرب وعقد صفقات ضخمة لشراء الأسلحة أو اتفاقيات للمصلحة المتبادلة؛ في حين يهيمن على المعسكر الثاني رجال ديــن ملتحون وملتحفــون بعباءاتهم الســوداء، ويجاهرون بمشاعرهــم المتطرفة المعادية لأمريــكا، ويحاولون أخــذ الأمريكيين رهائن، ويتأصل فيهم الشــر أساسا. وهكذا يفصل

"الأخيار" عن "الأشرار". وما زالت سياسة واشنطن ترى العالم ضمن هذا الإطار الثنوي المبسط والساذج وتتصرف على أساسه.

لم يدرك الرأي العام الأمريكي حتى الآن المفارقة الكامنة في أن القادة الذين يتطلعون إليهم لتحقيق الأمن والأمان هم الذين أوصلوا "أشرار" اليوم إلى السلطة، وهم الذين يبقونهم على سدتها بسياساتهم الخاطئة والخرقاء. وبعد ربع قرن من السياسات الأمريكية التي ساعدت - بطريق مباشر أو غير مباشر - في وصول الخميني إلى السلطة في إيران، أطلقت تسلسلا آخر من الأحداث التي ضخمت ودعمت بروز القادة والزعماء الشيعة المناهضين للولايات المتحدة: محمود أحمدي نجاد في إيران، ومقتدى الصدر في العراق، وحسن نصر الله في لبنان. أما شعبية هؤلاء الزعماء فإنما هي نتيجة مباشرة لتحديهم وقدرتهم على إيذاء أمريكا وإسرائيل والهزء بهما. في حين أوجدت السياسات الأمريكية الهادفة إلى وقف وكبح هؤلاء القادة الإسلاميين "المتطرف "، هلالا يضم قيادة شيعية إحيائية آسرة في قلب العالم الإسلامي، ومن ثم أخلت بالتوازنات الإثنية والمذهبية الدقيقة في المنطقة. ولربما يمثل بروز القادة الشيعة المهيمنين كالعمالقة والمردة حتى على الأفق السني، ظاهرة مؤقتة، وقد تعيد الغرائز الفطرية الإثنية والطائفية توكيد ذاتها قريبا، لكن في الوقت الراهن، نجحت السياسات الغربية السيئة التخطيط في تجسير أعمق هوة تقسم الإسلام في بعض أجزاء الشرق الأوسط. وجدنا طوال رحلتنا العديد من السنة يستشهدون بزعماء الشيعة ويختارونهم نماذج يحتذى مثالها. وعلى الرغم من العنف المذهبي الدموي في العراق، فإن الإدراك القائل إن الإسلام يتعرض للهجوم ما يزال يوجه مشاعر وعواطف المسلمين.

ثمة وجهة نظر ثمينة هنا يوفرها اثنان من المعلقين في العالم الإسلامي: صحفي باكستاني وباحث مصري، ينتمي كل منهما إلى عاصمة مهمة في الأمة الإسلامية وتمثل حليفا رئيسا للولايات المتحدة. ويقدمان صورة واضحة عن نظرة المسلمين للأحداث الراهنة. أولهما الصحفي الشهير ايار أمير، الذي علق كما يلي على الوضع في العالم الإسلامي بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان:

obeikandl.com

أصبح حزب الله رمزا للتحدي يتجاوز حدود لبنان، وغدا زعيمه، السيد حسن نصر الله، أشهر شخصية في العالم الإسلامي اليوم. إذن، ماذا حقق العدوان الإسرائيلي والسياسة الأمريكية المؤيدة له؟ حزب الله ما يزال موجودا. لكن مع فارق وحيد كبير يتمثل في استعداد مزيد من الشباب والشابات للدفاع عن القضية الإسلامية، ومزيد من الناس الذين يعدون حسن نصر الله رمزا للمقاومة.

شخصيا، أجد نفسي في وضع غريب. فأنا علماني في تفكيري أكثر من العديد من الناس الآخرين.. لكن علمانيتي تتصادم مع واقع لا يسر: صورة العالم الإسلامي المستعبد للقوة الأمريكية، وأفراد النخب الإسلامية يرقصون على أنغام أمريكا، ولا تزيد البلدان الإسلامية عن توابع تدور في فلك الولايات المتحدة. أرى ذلك في بلدي حيث يتعاظم التأثير الأمريكي، ومعظمه من النوع السلبي والسيئ. فإذا أراد العالم الإسلامي التقدم فعليه قطع هذا الرباط (مع أمريكا).

حتى الديمقراطية لن تأتي إلى العالم الإسلامي إلا إذا أوقف هذا النفوذ والتأثير. فمن أكبر الخرافات في عصرنا أن أمريكا تريد أن تزدهر الديمقراطية في أراضي المسلمين. ماذا لو كانت الديمقراطية لا تناسب مصالحها؟ لو كانت لدينا حكومات تحظى بالشعبية في البلدان الإسلامية فإن أول ما تطالب به هو إنهاء الهيمنة الأمريكية.

كان الأمريكان راضين على الشاه، ولم يطيقوا إيران الديمقراطية، ولا حماس الممثل المنتخب للشعب الفلسطيني، ولا حزب الله الذي يحظى بمكانة تمثيلية قوية في السياسة اللبنانية. الديمقراطية في العالم الإسلامي ومصالح السياسة الخارجية الأمريكية ضدان لا يلتقيان. لهذا السبب تجد كل حركة شعبية في العالم الإسلامي نفسها في مسار تصادمي مع مصالح الولايات المتحدة.

الآن، لو قبلنا جدلا أن الهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامي ليست أمرا جيدا وتستحق المقاومة، يصبح من الصعب على ما يدعى بالعلمانيين من أمثالي أن يغمضوا عيونهم عن الحقيقة المقلقة والجارحة التي تشير إلى أن القوى الوحيدة المقاومة لهذه الهيمنة، بنجاح في أغلب الأحيان، هي التي تستمد إلهامها بطريقة أو بأخرى من الإسلام.

دعونا الآن نكتشف المفارقة في ذلك كله. لقد قصد بـ"الحرب على الإرهاب" محاربة واحتواء الإسلام الجهادي المتطرف. لكن بدلا من ذلك، تحولت إدارة بوش لتصبح أقوى وأكبر داعميه. فبسبب غطرستها وأكاذيبها وتأييدها الأعمى لإسرائيل، زودت الإسلام المتطرف بقوة دافعة لم يكن يأمل بامتلاكها من تلقاء نفسه[39].

ثانيا، الباحث المصري سعد الدين إبراهيم يقتفي أثر نهوض حسن نصر الله ويربطه بالموقف الخامد الباهت لرؤساء وقادة النظام العربي:

طوال أكثر من أربعة أسابيع من القتال في مواجهة عتو أقوى آلة عسكرية في المنطقة، صمد حزب الله وفاز بإعجاب وتقدير ملايين العرب والمسلمين. وقارن الناس في المنطقة ثباته وصلابته مع الهزيمة الخاطفة التي تعرضت لها ثلاثة جيوش عربية جرارة في حرب الأيام الستة عام 1967.. تحدث حسن نصر الله، الزعيم الحالي للحزب، عدة مرات إلى جمهور إقليمي عريض عبر قناة "المنار" التابعة له، إضافة إلى المحطة التي هي أكثر شعبية "الجزيرة". لقد أصبح نصر الله اسما شائعا في كل بيت مصري.

ووفقا للنتائج الأولية لمسح حديث أجراه مركز ابن خلدون لاستطلاع آراء عامة الناس، شمل 1700 مصري، حصد إنجاز حزب الله 75% من أصوات الموافقين، وترأس حسن نصر الله على لائحة ضمت ثلاثين شخصية عامة في المنطقة رتبت وفقا لأهميتها. اختارت نصر الله 82% من الإجابات، تلاه الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد (73%)، وخالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس (60%)، وأسامة بن لادن (52%)، ومحمد مهدي عاكف مرشد جماعة الأخوان المسلمين في مصر (45%).

النمط هنا واضح لا لبس فيه، وهو إسلامي بامتياز. ومن بين قلة من الشخصيات العامة العلمانية التي كانت من بين أهم عشر شخصيات، الفلسطيني نبيل البرغوثي (31%) والمصري أيمن نور (29%)، وكلاهما من سجناء الرأي في السجون الإسرائيلية والمصرية (على التوالي).

لم يظهر أي من الزعماء العرب في لائحة الشخصيات العشر التي هي أكثر شعبية. وفي حين أن هذه النتائج (المصرية) عرضة للتقلب في المستقبل، إلا أنها تشير إلى

الوجهـة التي تتحرك المنطقة نحوهـا. فالعرب لا يحترمون الأنظمـة الحاكمة، ويعدونها استبدادية وفاسدة وعاجـزة. ويتبنون في أفضل الأحوال موقفا ازدواجيا من الإسلاميين المتشدديـن من أمثال بن لادن. أما الإسلاميون في التيار الغالب فقد استطاعوا عبر دعم عريض تطوير نزعات وميول مدنية وتوفير خدمات اجتماعية، وهم اللاعبون الرئيسيون علـى الأرجح في بنـاء شرق أوسط جديد. وفي الحقيقة، فهم يقومون الآن بهذا الدور عبر حـزب العدالة والتنمية في تركيا، والحـزب الذي يحمل الاسم نفسه في المغرب، والأخوان المسلمين في مصر، وحماس" في فلسطين، و. بلى حزب الله في لبنان[40].

حتـى قبل تفجر الصراع اللبناني - الإسرائيلي عام 2006، ظهرت أصوات أمريكية مرجعيـة وتساءلت هل تلحق بعض السياسات الأمريكية المتعلقة بإسرائيل الضرر والأذى بالبلدين كليهما. كلايتون سويشر، مدير برامج معهد الشرق الأوسط، مثلا، قدم الحجة علـى أنه "إذا أردنا إصلاح علاقاتنا بالعالمين العربي والإسلامي، علينا إجراء استقصاء نزيـه ومفتـوح فيما يتصل بدورنا في الصراع العربـي – الإسرائيلي. إن حياة العديد من الأمريكيين والإسرائيليين والعرب تعتمد على ذلك. وباعتبار جميع التهديدات الموجهة إلى بلدنـا من الشرق الأوسط، مضى زمن السياسة الضيقـة الأفق والمؤسسة على الخرافات والأساطـير. هنالـك جوانب عديدة لهذه القصة المعقدة، لكن مـا زالت الصيغ السحرية الأحادية التي تلقي اللوم على العرب وحدهم تهيمن على الساحة"[41]. ثمة مقالة كتبها عن هذا الموضوع جون ميرسهايمر وستيفن والت بعنوان "لوبي إسرائيل" أثارت جدلا خلافيا حـادا بين المفكرين على المستوى الوطني، ومنهـم سكوت ريتر، الخبير المتمرس بالجانب الجيوسياسـي للأسلحة النووية، وربطـت السياسات الإسرائيليـة بالمحافظين الجدد في واشنطن. برأي ريتر، كانت الحرب على العراق، بغض النظر عن كارثيتها، والحديث عن مهاجمة إيران، حلقة من السلسلة المتصلة بين إسرائيل والمحافظين الجدد.

برز جدل أيضا فيما يتعلق بدور وموقف الديكتاتوريين والدعم الذي تلقوه من الولايات المتحـدة طوال عقـود من الصراع مـع الشيوعية. ومنذ الحادي عشر مـن سبتمبر، تغير خطاب ودور الحكام الديكتاتوريين تغيرا ماكرا ومراوغا، مع أن علاقتهم بشعوبهم بقيت علـى حالهـا. فهم أيضا يتحدثون عن الديمقراطية في حـين يستمرون في قمعها وقهرها.

وبعد أن تعلموا استغلال أسيادهم البعيدين في واشنطن، حولوا الوضع لمصلحتهم عبر سحق أي معارضة تواجه سلطتهم وإطلاق اسم "الإرهاب" عليها، حيث أعطتهم واشنطن "شيكا على بياض" للاستمرار في انتهاك حقوق الإنسان وركم السلطة والثروة دون ضوابط أو قيود.

ديفيد والتشينسكي، الصحفي في "واشنطن بوست" عرف الديكتاتور بأنه "رئيس دولة يمارس سلطة عشوائية على حياة مواطنيه، ولا يمكن إزاحته عن السلطة عبر الوسائل القانونية. وأسوأ الديكتاتوريين يرتكبون انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان"[43]. واعتمادا على المعلومات المستمدة من هيئات حقوق الإنسان الدولية ومنها منظمة حقوق الإنسان، وبيت الحرية (Freedom House)، ومراسلون بلا حدود، ومنظمة العفو الدولية، يجد والتشينسكي أن خمسة من أسوأ عشرة ديكتاتوريين في العالم، وثمانية من أسوأ عشرين ديكتاتورا هم من المسلمين. في عام 2005 وعام 2006، اعتلى حاكم مسلم قمة لائحة الديكتاتوريين - عمر حسن البشير، رئيس السودان. في حين كان معمر القذافي وبرويز مشرف في لائحة أسوأ عشرة ديكتاتوريين عام 2005، لكنهما انتقلا بعد ذلك إلى لائحة العشرين: "لا لأن سلوكهما تحسن، بل لأن سلوك غيرهما أصبح أشد سوءا"[44].

تجدر الإشارة أيضا إلى أن ثلاثة على الأقل من الحكام الديكتاتوريين المسلمين متحالفون تحالفا وثيقا مع الولايات المتحدة ويتلقون دعمها وتأييدها، وتلك حقائق لا تذكرها كثيرا وسائل الإعلام الأمريكية. وحين اقتنعت الولايات المتحدة بأن عليها الاختيار بين الديكتاتور المسلم والزعيم الديني المسلم، وجدت دائما أن الأول أكثر جاذبية من الثاني مع ارتفاع مد الأصولية الإسلامية المتشددة. ومثلما قال الرئيس فرانكلين روزفلت حين اضطر إلى اختيار مشابه في أمريكا الجنوبية: "لربما كان (الديكتاتور) ابن زنا، لكنه ابننا".

تمثل إيران نموذجا لافتا لكيفية تورط الولايات المتحدة في المشكلات الصعبة عبر دعم الحكام المستبدين. القصة تعود إلى نصف قرن تقريبا. ففي أوائل الخمسينيات، أثار رئيس وزراء إيران المنتخب ديمقراطيا، محمد مصدق، حنق وغضب بريطانيا حين

أمم شركة النفـط الإنكليزية – الإيرانية. وبمساعدة الولايات المتحدة، أطاحت بريطانيا محمد مصدق وأعادت شاه إيران محمد رضا بهلوي إلى السلطة. بررت الولايات المتحدة دعمهـا بسياسة الاحتواء، التـي سعت إلى ضمان المصالـح الاقتصادية الأمريكية ووقف انتشار الشيوعية.

وبدءا بعهد إدارة كنيدي، عملت الولايات المتحدة على تحسين البنية التحتية في إيران عـبر القروض الضخمـة إلى بنك التنمية الإيـراني. وذهبت التمويـلات إلى المشروعات الزراعيـة والصناعية، مثل مصانع النسيج والإسمنت والميـاه ومكافحة الآفات الزراعية وإنشـاء الجمعيات الزراعية. وساعدت في إطلاق برامـج صحية في الجامعات الإيرانية، وأقامـت شبكـة من مراكز الرعايـة الصحية في الأريـاف، وبرامـج في الولايات المتحدة لتدريب الإيرانيين المؤهلين ليصبحوا أطباء ومسؤولين عن الرعاية الصحية العمومية[45]. لكـن وحين وصل الرئيـس نيكسون إلى البيت الأبيض في أواخـر الستينيات، تحول تركيز الولايـات المتحـدة (بدءا من أوائـل السبعينيات) من تنمية إيـران إلى الأعمال التجارية فيها. وفي هذه الأثناء، ازدادت محاولات الشاه الغريبة لضمان استمرار المعونة الأمريكية عبر إظهار قوة "إيران الجديدة"، واتباع التراث العظيم للإمبراطورية الفارسية السابقة تحـت حكم داريوس وقورش. ونظـم مناسبات مشهدية كبرى، منها احتفالية تنصيبه هو عـام 1967. وفي الاحتفال الأكثر فخامة الذي نظمـه تخليدا لقورش، عرض أفخر ما في الغرب، بدءا بالطهاة الذين استقدمهم من باريس وانتهاء بأروع أواني الخزف الأوروبية. وأقيمـت مراسم فخمـة للديبلوماسيين الغربيـين، ووجد رجال الأعمـال في إيران منجم ذهـب لعملياتهم وسوقا مناسبة للخدمات والتقانة. ولربما نجحت استعراضات الشاه في ضمان دعم الغرب له، لكنها استعدت السكان المسلمين.

في أعقـاب حـرب فيتنام، سعـت سياسة الولايـات المتحدة إلى التعامـل مع الأزمات الإقليميـة بالوكالـة بدلا من التورط العسكري المباشر، وهـي سياسة باتت تعرف بـ"مبدأ نيكسون". وبعد أن اقتنعت إدارتا نيكسون وفورد كلتاهما بأن إيران حليف مؤثر في الحرب البـاردة، اعتنقت وصدقت فكرة الشـاه بأن إيران هي شرطي منطقـة الخليج. وسمحت كل منهمـا للشاه بالحصول علـى كميات غير محدودة من الأسلحة (غـير النووية) التي

يمكـن أن تنتجهـا الولايات المتحدة. وبخلال بضـع سنين، استطاع الشـاه بناء خامس أو سادس أكبر جيش في العالم. وبحلول عام 1976، امتلك زهاء 3000 دبابة و 980 حوامة حربية، وأكثر من 200 طائرة مقاتلة متطورة، وأكبر أسطول من الحوامات البرمائية في العالم، و9000 صاروخ مضاد للدروع، والكثير من المعدات الأخرى الموجودة لديه أو التي طلبها من الولايات المتحدة وحلفائها[46].

من جانبها، سعت الولايات المتحدة إلى تطوير برنامج إيران النووي. ففي عام 1975، وقع وزير الخارجيـة الأمريكية هنري كيسنجر وثيقة للأمن القومي تجيز التعاون النووي بـين الولايات المتحدة وإيران وتضـع تفاصيل مبيعات معدات الطاقـة النووية إلى إيران. وفي عـام 1976، وقـع الرئيـس فورد توجيها يمنح طهـران فرصة شـراء وتشغيل منشأة معالجة بنتها الولايات المتحدة لاستخلاص وقود المفاعل النووي. ولم يكتف فريق الرئيس فورد (ضم ديك تشيني الذي خلف دونالد رمسفيلد كرئيس لموظفي البيت الأبيض، وبول ولفوويتـز الذي أشـرف على شؤون عدم انتشـار الأسلحة النووية في وكالـة نزع الأسلحة والسيطـرة عليها) بتصديق الخطط الإيرانية لبناء صناعة طاقة نووية ضخمة فقط، بل عمـل بجد ودأب أيضا علـى استكمال صفقة بعدة مليارات من الـدولارات تعطي طهران حرية التحكم بكميات كبيرة من البلوتونيوم واليورانيوم المخصب، العنصرين الضروريين لصنـع القنبلة النوويـة. إضافة إلى ذلك، استمر في المساعـي لتزويد إيران بالتكنولوجيا النوويـة. أما الشركات الأمريكية فقد كسبت بدعم من واشنطن 6.4 مليار دولار من بيع ستة إلى ثمانية مفاعلات نووية إضافة إلى قطع الغيار[47].

أدى النفوذ المتنامي للولايات المتحدة، عبر مليارات الدولارات المخصصة للأغراض التجاريـة والصفقات النفطية، إلى اتسـاع الهوة الفاصلة بين الأغنيـاء والفقراء بمعدل ينـذر بالخطر. وفي حين رتع الشاه والشـركات الغربية الداعمة له في الاحتفالات المسرفة التـي صرف عليها بسخاء منقطـع النظير، غرق ملايين الإيرانيين في وهدة الفقر. وحين بـدأت بـوادر ردود الفعل العنيفة تتعاظـم على موقف الشاه المغـالي في ممالئة الغرب في أوائل الستينيات، ازداد استبداده وتعسفه، وأطلق العنان لشرطته السرية السيئة الصيت، "السافـاك"، للتصـدي للمعارضين والمنشقين. ضم معارضو النظام طيفا واسعا شمل

الاشتراكيين والماركسيين والإسلاميين المحافظين وبعض "المسلمين المعتدلين"، وعناصر من الأغنياء والفقراء على حد سواء. وتعاظم العداء لأمريكا.

من الشخصيات الوحيدة التي تمكنت من الوقوف في وجه حكومة الشاه وجهاز "السافاك" آية الله الخميني، وهو رجل دين كان يدرس الأخلاق الإسلامية في المدرسة الفيضية في قم. ونتيجة الاعتقاد أن الإسلام يتعرض للهجوم في إيران من الولايات المتحدة، لم يتردد الخميني في إعلان ذلك صراحة وعلى رؤوس الأشهاد، واتخذ عام 1963 أول خطوة فيما أصبح لاحقا هجوما مستداما على الشاه، الذي صوره كعدو للإسلام. احتج الخميني على حكم الشاه الوحشي والظالم، وأساليب التعذيب والقمع القاسية التي يستخدمها مع جميع أطياف المعارضة، مع إدانة الولايات المتحدة وإسرائيل أيضا. وتحدث بحماس وبصوت عال باسم الفقراء داعيا الشاه إلى مغادرة قصوره وزيارة أحياء الفقر في جنوب طهران. وزعم أنه يريد تدمير الإسلام ذاته: "بلادنا، والإسلام في خطر، ويقلقنا ويحزننا الوضع في هذا البلد المدمر. نسأل الله أن يصلح حاله"، حسبما قال عام 1963[48]. ثم أعلن أن إيران ليست سوى مستعمرة أمريكية وتساءل: "أي أمة تلك التي تخضع لمثل هذا الإذلال؟"، معبرا عن أسفه وحزنه على الكثيرين الذين يتوقع موتهم في الشتاء القادم "لا سمح الله، من البرد والجوع"[49].

انتقد الخميني بشدة أيضا الحصانة التي منحها الشاه للقوات الأمريكية معلنا أنه "باع" استقلال إيران: "إذا قام خادم أمريكي أو طاه أمريكي باغتيال أحد مراجعكم وسط السوق أو دهسه بالسيارة، لا يحق للشرطة الإيرانية اعتقاله! ولا تملك المحاكم الإيرانية الحق في محاكمته!.. لقد أنزلوا الشعب الإيراني إلى أدنى من مرتبة الكلاب الأمريكية. إذا دهس إيراني كلبا لأمريكي، سوف يعاقب. لكن إذا دهس طباخ أمريكي الشاه، رئيس الدولة، لا يملك أحد الحق في التدخل"[50]. في مجتمع ما زال يعرف وفقا للمفاهيم القبلية عن الشرف، ألهبت هذه الأفعال مشاعر الاعتزاز الوطني لدى الإيرانيين العاديين وفاقمت إحساسهم بالإهانة والإذلال.

في أعقاب هذه الخطبة، أجبر الخميني على العيش في المنفى في العراق، وأطلقت الحكومة حملة قمعية أخرى على المعارضين، استهدفت المدارس والحوزات الدينية بتهمة

تعليم الكراهية للحكومة، ثم اعتقلت / وعذبت حتى الموت آية الله رضا سيدي لأنه اعترض على مؤتمر نظم لترويج وتشجيع الاستثمارات الأمريكية في إيران، وأدان النظام بوصفه "عميلا مستبدا للإمبريالية"[51]. تفاقمت حدة التوتر في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، حيث قتل المئات في حملات القمع الوحشية، وبدأت معدلات التضخم ترتفع بسرعة، في حين بقيت قرى عديدة تعيش في فقر مدقع لا أمل في الخروج من وهدته. هذه هي الظروف ذاتها التي يزدهر فيها نموذج ديوباند ويرفض مبادئ "الديمقراطية" و"التجارة الحرة" التي تروجها الولايات المتحدة.

وبعد أن أدركت الحكومة أنها تفاقم غضب واستياء الجماهير عبر محاولة إلغاء ومحو مظاهر ومقومات ومعالم الثقافة الإسلامية، اتخذت مقاربة مختلفة قائمة على ضرورة "تحديث" الإسلام ليصبح "إسلاما مدنيا". وفي سبيل تسهيل هذا التحول وإظهار أن الحكومة تحترم الإسلام فعلا، أنشأت مؤسسة جديدة تعتمد على "ملالي الاعتدال"، والخروج إلى الجماهير لترويج وتشجيع التعليم، وتشييد البنية التحتية، وتلقيح المواشي، وإظهار أن الإسلام منسجم ومتوافق مع العصر الحديث. ذلك هو نموذج عليكره. لكن في نظر الرعايا الذين كانوا مخلصين ذات يوم في ولائهم للشاه، كانت هذه اليد الودودة الممدودة هزيلة جدا ومتأخرة جدا. فبحلول ذلك الوقت، بلغت مشاعر الغضب والاستياء التي ملأت نفوس الإيرانيين حدا لم تعد تكفي عنده حتى هذه الإصلاحات الإيجابية لمحو ذكريات غطرسة الشاه، وقسوته، وعدم رغبته في العمل مع الجماعات المختلفة التي طالبت بالمشاركة الديمقراطية المشروعة. وما ضاعف مشاعر الغضب إدراك أن الأمريكان هم القوة الحقيقية خلف العرش.

ثم تحول عامة الإيرانيين إلى الخميني بوصفه بديلا معقولا وواعدا للشاه، حيث استخدم التقانات الحديثة، مثل "شرائط الكاسيت"، لنشر رسائله المتحدية التي يبثها من منفاه. واكتسب مزيدا من المصداقية لدى المسلمين العاديين حين توفي أحد أبنائه الذي كان يعيش معه في منفاه فجأة، واتهم جهاز "السافاك" بالتورط في الحادث.

وعلى شاكلة الشخصيات الإيرانية الأخرى في تلك الحقبة، مثل علي شريعتي، اعتقد الخميني أن الإسلام الشيعي يحمل رسالة حديثة في عصر طحنه الظلم والبؤس وغاب

عنه اليقين: "الإسلام دين المجاهدين الملتزمين الدين والعدل. دين الطامحين إلى الحرية والاستقلال. مدرسة المناضلين أمام الإمبريالية". وقال إن الإسلام رائد مُثل التحرر والحرية الحديثة التي يزعم الغرب امتلاكها، واستحث الإيرانيين على رفض الثقافة الغربية وإعادة اكتشاف تراثهم: "لقد نسينا هويتنا، واستبدلناها بالهوية الغربية.. وأصبحنا عبيدا للمثل الأجنبية الغربية"[52].

ومع تفاقم الأوضاع الاجتماعية وتعاظم خيبة الأمل من الحكومة، انضمت شرائح المجتمع كلها، ومنها الفنانون ورجال الأعمال، إلى رجال الدين في جوقة واحدة للاحتجاج على الحكومة. وأظهرت جميع الطبقات، العليا والوسطى وما بينهما، ازدراء متناميا للولايات المتحدة، وتفجرت الاحتجاجات العنيفة. فبين عامي 1971. 1975 حدثت 31 عملية تفجير وتهديد بتفجير المؤسسات والمنشآت الأمريكية، منها تفجيران استهدفا السفارة الأمريكية ذاتها[53].

وفي خطاب قوي مناهض لأمريكا ردد صدى مشاعر وآراء جميع شرائح وطبقات المجتمع الإيراني، رسم الخميني صورة الولايات المتحدة كمصدر للشر في العالم، وعلى ما يبدو لم يتمكن الأمريكيون من فهم الوضع، فتشبثوا بعناد بالرأي القائل إن إيران تحتل مركزا محوريا للمصالح التجارية والأهداف الاستراتيجية الجيوسياسية للولايات المتحدة – والنخبة في طهران يمكن العمل معها. في عام 1977، وصل الرئيس جيمي كارتر إلى طهران في زيارة رسمية وتبادل الأنخاب مع الشاه، معلقا بملاحظة غريبة وسيئة التوقيت تؤكد أن إيران "جزيرة للاستقرار في ركن مضطرب من العالم"، بفضل "القيادة المستنيرة" للشاه، و"نتيجة لمشاعر الاحترام والإعجاب والحب" التي يكنها الشعب الإيراني له. وبعد زهاء أسبوع من مغادرة كارتر لطهران، اندلعت الثورة وبلغت ذروتها مع عودة الخميني من باريس، وتفجرت أعمال العنف في مختلف أنحاء إيران.

في حين استمرت الولايات المتحدة في الإصرار العنيد على أن الثورة ليست وشيكة وعبرت عن دعمها وتمسكها بالشاه، ظهرت شعارات على جدران طهران تشبه جيمي كارتر ببزيد، الخليفة الأموي الذي بعث بجيشه لقتال الحسين حفيد النبي عام 680م، والشاه بشمر قائد جيش يزيد الذي ذبح الحسين وصحبه. من المهم فهم مدى قوة

التأثير التي تستحضرها في الشيعة أسماء مثل الحسين ويزيد: فالأول هو الرمز المطلق للبطولة في وجه الطغيان والثاني هو الشر المصفى عينه. تعزز هذا الإدراك بأعمال القمع الوحشية التي مارسها "السافاك" على المتظاهرين، وخلفت العديد من القتلى في قم وغيرها، وهذا ما شجع الإيرانيين على اعتبار أنفسهم شهداء يهبون في وجه الطغيان الذي قاوموه على مر السنين.

مع أن الولايات المتحدة عبرت عن دعمها الثابت للشاه إلا أنها حاذرت من حمام دم في إيران. فقد استثمرت في البلاد وكان العديد من مواطنيها يعيشون في إيران والعديد من الإيرانيين يعيشون في أمريكا بحيث أحجمت عن فعل ما من شأنه تعريضهم للخطر. لكنها لم تستطع تفادي الإدراك بأن الشاه يخسر نفوذه وتأثيره بسرعة، خصوصا حين نزل مئات الآلاف من المتظاهرين إلى الشوارع في آب/ أغسطس 1978 للاحتجاج على إعلان الأحكام العرفية. وفي الثامن من أيلول/ سبتمبر، فتحت عناصر "السافاك" النار على الحشود في ساحة جاله، وهي ممارسة غدت روتينية كلما وحيثما تجمعت الحشود الجماهيرية عام 1978، فقتل المئات من المتظاهرين المحتجين. ومع ذلك، اتصل الرئيس كارتر بالشاه بعد حادثة الساحة للتعبير عن دعم أمريكا الثابت، فسر الشاه لدرجة أنه أمر بنشر نص المحادثة الهاتفية بينهما. وبدا في نظر العديد من الإيرانيين كأن الشاه يتلقى التهنئة من كارتر على المذبحة[54].

مع خروج الأزمة من نطاق السيطرة، بدأ صبر الولايات المتحدة ينفد تجاه الشاه. وحين أدركت أن مصالحها في إيران معرضة لخطر داهم، توسلت الإدارة إليه كي يتصرف بطريقة تعيد الاستقرار للبلاد، حتى إن عنى ذلك التنازل عن العرش وتعيين خليفة له. وبعدها عاد الخميني إلى إيران، فاستقبله مليون إيراني في المطار، وانهار نظام الشاه كبيت من ورق.

في أكتوبر 1979، نقل الشاه المكروه إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج لكنها رفضت منحه حق اللجوء السياسي وطلبت منه البحث عن ملاذ في مكان آخر. ولربما قصد من هذا الرفض أن يظهر الأمريكيون للمسلمين أنهم يبعدون أنفسهم عن الشاه، لكنه أفرز نتيجة عكسية – فقد أكد للمسلمين أن الأمريكان قوم يتأصل فيهم الغدر وعدم الوفاء تجاه

حليـف أخلصـ لهم الولاء. الشرف والوفاء والإخلاص (كمـا شرحنا في الفصل الثالث) قيم وسجايـا تحتل مركزا محوريا في الثقافة الإسلامية، وهذا الفعل الغادر سلط الضوء على الاختلافات الأساسية والدرامية بين المجتمعين. وخلال الفوضى العارمة التي أعقبت الثورة، اقتحم الطلاب السفارة الأمريكية واحتجزوا رهائن فيها، ورفضوا إطلاقهم حتى يعود الشاه ويحاكم في إيران. حين كان الخميني في المنفى، عارض محاولة سابقة قام بها الماركسيون للاستيلاء على السلطة، لكنه دعم احتلال السفارة من مجموعة غير منظمة من الطـلاب الثوريين الغاضبين. فقد تذكر هؤلاء انقلاب عام 1953، واقتنعوا أن وكالة المخابرات المركزية متورطة حتى الأذنين في إيران وسرعان ما ستتحرك لإعادة الشاه إلى العرش. لذلك، اقتحم الطلاب السفـارة لإجهاض أي انقلاب جديد والانتقام للانقلاب القديم.

المتطرفـون هـم الذين يسيطرون الآن علـى الثورة، ليقصوا ويهمشـوا القوى التي لم تسايرهـم حيث اتهموهابتأييد أمريكا، ومن ثم فهي عـدو الثورة. أما أزمة الرهائن التي استمـرت 444 يوما فقد سممت العلاقات بين الولايـات المتحدة وإيران. أصيب الطلاب بالإحباط حين فقد مزيد من الأمريكيين اهتمامهم بالثورة على ما يبدو، وهذا من الدوافع المفتاحيـة وراء احتجاز الرهائن في المقـام الأول. ومع استمرار الأزمـة وتردي العلاقات بالولايات المتحدة، تعزز موقف الطلاب والخميني داخل إيران.

في أوائل الثمانينيات، لجأت الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن الدولي طلبا للعون، آملة أن يفرض عقوبات على إيران. لكن الاتحاد السوفييتي عارض الفكرة في الوقت الذي غزا فيه أفغانستـان، وهذا ما غير المشهد الجيوسياسي تغييرا جوهريا. وناقش مجلس الأمن القومي الأمريكي العديد مـن الاستراتيجيات الأخرى لتحرير الرهائن، ومنها الضربات العسكريـة والحصار. بل فكرحتى بالقيام بمحاولـة انقلابية ضد الحكومة الثورية، لكنه قرر في نهاية المطاف التراجع عن مثل هذه الخطوة.

بـدلا مـن ذلك، تسللت جماعـة من قوة دلتـا في الجيش الأمريكـي إلى إيران لإنقاذ الرهائن بواسطة الحوامات. لكن المهمة، التي سميت "عملية مخلب النسر"، فشلت فشلا ذريعا. فالظروف الجوية السيئة، التي تجاهلها الجيش، أدت إلى خروج إحدى الحوامات

مـن العمليـة بسبب عطـل فني، واصطدام حوامـة أخرى مع طائرة نقل مـن طراز "سي 130"، فقتـل ثمانية من أفـراد الطاقم. وهكذا، تخلت إدارة كارتر نهائيا عن الخيار العسكـري، مما أجـبر أقوى دولة في العالم على الاكتفاء بالانتظـار حتى يكون الإيرانيون علـى استعـداد لإطلاق الرهائن مـن أسرهم. ومع أنهم أظهروا بعض الإشارات في هذا الاتجـاه في منتصـف عام 1980، إلا أن الخميني قرر الانتظار حتى كانون الثاني / يناير 1981، أي إلى عشيـة تنصيـب رونالـد ريغان رئيسا ليثبت - كما قيـل - قدرته على منع رئيـس أمريكي من الوصول إلى سدة الرئاسة، تماما كما فعلت وكالة المخابرات المركزية حين أسقطت حكومة مصدق عام 1953.

بين عشية وضحاها تقريبا، لم تخسر الولايات المتحدة حليفا رئيسا في المنطقة فقط، بل ساعدت أيضا دون قصد في وصول قيادة متطرفة (تتبع نموذج ديوباند) إلى السلطة، قيـادة ترى في الولايـات المتحدة "الشيطان الأكبر". كانت الأمـور ستتخذ مسارا مختلفا تمامـا لو أعـادت الولايات المتحدة العلاقات الديبلوماسية مـع طهران بعد ثورة الخميني مباشـرة وأكدت احترامها للإسلام كدين قـادر على التكيف مع الديمقراطية؛ وساعدت في تعزيـز الديمقراطيـة الإيرانية الجديدة عبر تقديم العون لإجـراء انتخابات، وتطوير الخدمـات المدنية، والمشاركة مع المؤسسات التعليمية؛ ولم تشن ما عده الإيرانيون هجوما إعلاميا على ثقافتهم ودينهم؛ وخاطبـت الشعب الإيراني بلغة النيات الحسنة والتشجيع علـى التغيـير والتحول عن ديكتاتوريـة السنوات الماضيـة. وكان من الممكـن تجنب أزمة الرهائـن والخطوات اللاحقـة التي أدت إلى المواجهة الحالية، على الرغم من وجود بقية من المشاعر المعادية لأمريكا. لكن الولايات المتحدة بدت غير مهتمة وغير معنية بتجربتها في إيران: إذ سرعان ما ستصبح راعية لديكتاتور آخر، صدام حسين، سيكون أيضا عدوا لدودا لها في المستقبل.

في أعقـاب الثـورة، ركـزت إيران اهتمامـا متناميا علـى شيعة العـراق، الذين كانوا يتعرضـون للقمع والاضطهاد تحت حكم صدام حسـين، وحثتهم على إعلان الجهاد على الديكتاتـور العراقـي. وكثيرا ما أشـار الإيرانيـون إلى صدام بوصفه "دميـة الشيطان" واتهمـوه بأنه "مريض عقليا"[55]. مـن جانبه كان صدام يراقـب الوضع الإيراني طوال

السبعينيات بعين القلق، خصوصا بعد أن هدد الخميني بتصدير الثورة إلى العراق، لا سيما مدينة كربلاء المقدسة. وبعد أن رأى ما أنجزه الخميني وما حل بالشاه، اعتقد صدام أن مخاوفه مبررة. إضافة إلى ذلك، فر العديد من القادة الإيرانيين الذين عملوا في مؤسسة الشاه العسكرية إلى العراق وحاولوا إقناع بغداد بمساعدتهم على استعادة بلادهم من قبضة الخميني. بعضهم قال إن الجيش الإيراني يعاني التفكك وفرار أفراده من الخدمة ويتعرض لعمليات تطهير واسعة (حيث أعدم مئات المنشقين السياسيين). وحين اقتنع صدام بإمكانية إسقاط حكم الثورة وإقامة حكومة أكثر صداقة مع بغداد، قرر شن غزو مفاجئ لإيران. والأهم أن العراق سيجني مزيدا من عائدات النفط، وسيصبح صدام زعيم العالم العربي دون منازع. وهكذا، في الثاني والعشرين من أيلول/سبتمبر 1980، بدأ صدام حربا طويلة ودموية سيسقط فيها أكثر من مليون قتيل.

بدأت الولايات المتحدة تقدم مساعدات مهمة للعراق. ففي شباط/ فبراير 1982، شطبت العراق من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب الدولي، ومن ثم عبدت الطريق لزيادة كبيرة في العلاقات التجارية بين العراق والولايات المتحدة. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1984، بعد قرابة شهر من إعادة العلاقات الدبلوماسية، بدأت السفارة الأمريكية الجديدة في بغداد تزويد الجيش العراقي بمعلومات استخبارية مهمة. في الوقت ذاته، ضاعفت واشنطن تقريبا ائتمانات العراق للمنتجات الغذائية والمعدات الزراعية من 345 مليون دولار عام 1984 إلى 675 مليونا عام 1985. وفي أواخر عام 1987، وعدت العراق بائتمان يبلغ مليار دولار للسنة المالية 1988، أي أكبر ائتمان يقدم إلى بلد في العالم[56]. وتدخلت المؤسسة العسكرية الأمريكية في الحرب تدخلا مباشرا أيضا، حين أغرقت السفن الإيرانية في الخليج العربي.

مع تقدم مسار الحرب باتجاه استحالة انتصار أي من الفريقين، تنامى إحباط العراقيين من عجزهم عن تحقيق انتصارات حاسمة وحاولوا استخدام الأسلحة الكيماوية. فبحلول أواخر عام 1983، خزنت بغداد ما يكفي من غاز الخردل للقيام بذلك، وسرعان ما امتلكت كميات من الغازات والمواد الخانقة مثل الفوسجين (ثنائي كلوريد الكربونيك)، ثم غازات الأعصاب مثل التابون والسومان والسارين. وألحقت

هجمات صدام الكيماوية بإيران دمارا مروعا خصوصا بين صفوف المدنيين العزل. وسعى الإيرانيـون سعيا حثيثا لشراء الأقنعة الواقية من الغازات، لكن هذه لم توفر حماية كافية من غازات الأعصاب المتطورة التي تسبب الهلاك عند ملامسة الجلد المكشوف. والعديد من الإيرانيين الملتحين لم يتمكنوا من ارتداء الأقنعة بالطريقة الصحيحة فقتلتهم الغازات السامـة. من المرجح أن المواد الكيماوية العراقية قتلـت قرابة خمسين ألف إيراني خلال الحـرب[57]. وخـلال الأشهر الأخيرة من الحرب عام 1988، شـن صدام أشد هجماته الكيماويـة فتكا على الكرد وعلى الإيرانيين الذين دعموهم في حلبجه، حيث قتل أكثر من خمسـة آلاف شخص على أقـل تقدير[58]. ولم يكتف بقصف المناطـق الكردية في شمال العـراق بالأسلحة الكيماوية، بل دمر القرى الكردية ونقل سكانها إلى معسكرات الأعمال الشاقـة. من المؤكد تقريبـا أن الولايات المتحدة كانت على علم بهذه العمليات، التي مثلت خرقـا فاضحا لبروتوكـولات جنيف لعـام 1925 وتحديا للأمم المتحـدة، وسمحت ببيع العراق المواد الكيماوية السامة والمواد الجرثومية المهلكة، مثل الجمرة الخبيثة والطاعون الدبلي. كما أجازت وزارة التجارة الأمريكية تصدير المبيدات الحشرية إلى العراق، على الرغـم من الاشتباه بأنها تستخدم لإنتاج الأسلحة الكيماوية. في شباط/ فبراير 1984، أصـدر ناطق عسكري عراقي التحذير المرعب التـالي إلى إيران: "يجب أن يدرك الغزاة أن لـكل حشـرة ضارة مبيـدا حشريا قادرا علـى إبادتها.. والعراق يمتلـك هذه المبيدات الحشرية المهلكة"[59].

في السنـة السابقة، أبلـغ أحد كبار مسؤوليوزارة الخارجيـة، جوناثان هاو، أبلغ وزير الخارجية جورج شولتز أن التقارير الاستخبارية أظهرت أن الجنود العراقيين "يستخدمون بشكل يومي تقريبا الأسلحة الكيماوية" ضد الإيرانيين. لكن إدارة ريغان كانت قد التزمت تقـديم دعـم ديبلوماسي وسياسي واسع النطاق إلى بغداد، بلغ ذروته في عدة زيارات قام بهـا دونالد رمسفيلد، المبعوث الخاص المعين حديثا للرئيس الأمريكي في الشرق الأوسط. زودت العـراق بمـا يحتاجـه تشكيلة متعددة من الشـركات الغربية، منهـا بكتل، ويونيون كاربايـد، وهونيويل. واستخدم وليام كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية شركة تشيلية (كارديون) لتزويـد العراق بالقنابل العنقودية للقضاء على الموجـات البشرية الإيرانية، حيث كان يندفع آلاف الشهداء نحو الخطوط العراقية[60].

صممت الولايات المتحدة على فعل أي شيء يمكن أن يوقف إيران، مثل دعم صدام الديكتاتور المستبد، وكانت بذلك تخلق حالة شبيه بحالة "شاه إيران". ولو احترمت الولايات المتحدة القوانين الدولية واستمرت في التزام مثلها العليا، لما تلطخت يداها بهذا الدم المسفوح في الشرق الأوسط، وهذا أمر لم يغب عن ذاكرة سكانه حتى الآن. ولما شنت حربين على صدام وأزهقت فيهما أرواح الآلاف من الضحايا.

لم تكتف الولايات المتحدة بتجاهل الدروس والعبر من الانهيار المشهود لحكم شاه إيران ونهوض الخميني فقط، بل عملت أيضا على تفعيل وتنشيط السياسات المتخذة خلال تلك المرحلة الكارثية. الخبراء المحنكون والسياسيون المتمرسون الذين ضللوا الشعب الأمريكي آنذاك عادوا الظهور مرة أخرى على مسار مشابه لتهديد سورية وإيران، حتى في الوقت الذي ما زالت فيه المشكلات في العراق وأفغانستان دون حل. وفي الحقيقة، يبدو أن الأمريكيين وصلوا إلى طريق مسدود مع أحمدي نجاد. فخبراء السياسة الخارجية الذين نصحوا الشاه بتجاهل الأصوات الإسلامية يقدمون مشورتهم الآن وينصحون الإدارة الأمريكية بتجاهلها. وهذا لن يؤدي إلا إلى تفاقم مشاعر الغضب والاستياء والعداء للولايات المتحدة. فضلا على ذلك، في حين كان أمام الأمريكيين بديل الحكومات "العلمانية" للعمل معها، لم يعد لديها الآن سوى الأحزاب الإسلامية، وجميعها تتطلب مقاربات مختلفة ومتباينة. وبذلك، يتجاهل الأمريكيون العديد من الحكومات الإسلامية والحركات الشعبية الحقيقية، ويسيئون فهمها ويصنفونها في خانة "الإرهاب". ومن ثم فهم يخسرون ويستعدون شرائح واسعة من السكان ويحولونها إلى أعداء ألداء بدلا من عقد علاقة عمل معها يمكن أن تتطور إلى دعم وصداقة.

حين أصبح محمود أحمدي نجاد، مدعوما من الملالي المتشددين، رئيسا لإيران في صيف عام 2005، انتهى الحوار المتقطع لكن القائم بين الحضارات الذي بدأه سلفه محمد خاتمي[61]. ونتيجة تزعزع استقرار العالم وخوض جنود البلدان الغربية حربين دمويتين في العراق وأفغانستان، يتجه العالم الآن نحو مستوى أشد خطرا من المواجهة.

صور الخطاب العدواني الكريه الذي تبثه وسائل الإعلام أحمدي نجاد على هيئة هتلر في الولايات المتحدة، وبوش كشيطان رجيم في إيران. لكن نظرة أحمدي نجاد إلى

العـالم تشكلـت بطريقة مباشـرة بسياسة الولايات المتحـدة تجاه إيـران في السبعينيات والثمانينيـات، حين كان زعيما طلابيا خلال الثورة وشارك فيما بعد في الحرب الإيرانية – العراقيـة. ولا بـد أن بياناته وعباراتـه المستفزة محسوبة ومقصـودة لإغضاب وتهييج الولايـات المتحدة وإسرائيـل ويجب رؤيتها ضمن هذا السياق. وأعتقـد أنه يؤمن فعلا أن الجنـود الأمريكيين محاصرون الآن في الرمال المتحركـة العراقية وفي وضع يائس بحيث تحولـت الولايـات المتحدة إلى نمـر دون أسنان ومخالب. لكن ما يتعـذر إنكاره أن بيانات وعبـارات نجاد المتطرفـة أكسبته شعبية بين المسلمين العاديين، حتـى السنة منهم مثلما رأينا خلال رحلتنا.

لبنان أيضا يتناسب تماما مع النظرة الإيرانية للعالم. فحين تشكلت حكومة الخميني المعاديـة لأمريكا، نظر الخميني إلى العالم الخارجـي ووجد حالات مشابهة يتعرض فيها المسلمون للهيمنة والقمع والاضطهاد، خصوصا إخوانه الشيعة، وسرعان ما تركز انتباهه على لبنان. فقد اجتاحت إسرائيل لبنان عام 1978 لمنع منظمة التحرير الفلسطينية من مهاجمـة شمـال إسرائيل بالصواريخ. وفي عام 1982، اندفـع الإسرائيليون حتى بيروت واحتلـوا المدينـة، سعيا لإقامة منطقة عازلة في جنوب لبنـان. وكان الاحتلال الإسرائيلي للبنـان وحشيـا وأدى إلى استيـاء واحتجـاج ومقاومـة على نطـاق واسـع، خصوصا من الشيعة. ولمحاربة الاحتلال، أرسلت الحكومة الجديدة في إيران المال والسلاح إلى لبنان، فاستخدمـا لتكوين منظمـة مقاتلة يمكن ألا تكتفـي بالكفاح ضـد الإسرائيليين فقط بل تواجه الأمريكان أيضا. اعتنق "حزب الله" مبدأ التفجيرات الانتحارية لمجابهة الولايات المتحـدة وإسرائيـل معـا، فهاجم ثكنة مشـاة البحرية الأمريكية في بـيروت عام 1983، وكانـت تلك طريقة جديـدة ظهرت عام 1981 حـين هاجمت مجموعة شيعيـة السفارة العراقيـة في بيروت. عد حزب الله وإيران هذه العمليـات "استشهادية" لا انتحارية، لأن القرآن حرم الانتحار[62]. ثم انتقلت الطريقة من الشيعة إلى السنة حين بدأت "حماس" استخـدام التفجيرات الانتحارية، لتصبح سلاحا في يد الجهاديين في حربهم مع الغرب. وبعـد الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق، استخـدم السنة والشيعة العمليات الانتحارية في التقاتـل وفي محاربة الدولة العراقية والجنود الغربيين. وسرعان ما بدأ الانتحاريون –

وحتى الانتحاريات - يحدثون تأثيرا نافذا شعرت به البلدان الإسلامية (السنية) الأخرى مثـل السعودية والأردن وباكستان. وأدى اقتران غضب المسلمين على الطغيان والاستبداد والظلم مع الأفكار القبلية عن الثأر والشرف إلى ظهور تفسيرات جديدة وخلافية وعنيفة بين العلماء المسلمين حول المفهوم القرآني للانتحار.

عنـد تذكر هذا السياق، يمكن بسهولة مقارنة وجهات النظر الواردة في خطابي بوش وأحمـدي نجـاد أمام الأمم المتحدة في التاسع عشر من أيلول/ سبتمبر 2006. فقد وجه الرئيس بوش خطابه إلى الشعب الإيراني قائلا: "على الرغم من أن حكامكم قد اختاروا حرمانكـم مـن الحريـة واستخدام مـوارد دولتكـم لتمويل الإرهـاب وتشجيـع التطرف والسعـي لامتـلاك أسلحة نوويـة" إلا أنه يأمل بقـدوم "يوم يمكنكم فيـه العيش بحرية، ويمكـن أن تصبح فيه أمريكا وإيران صديقتين وشريكتـين في سبيل قضية السلام". أما أحمـدي نجاد فقد رد بعدة انتقادات، ملاحظا أن مجلـس الأمن الدولي فشل في الدعوة إلى وقـف فـوري لإطلاق النـار بعد الحرب التـي اندلعت بين إسرائيـل و"حزب الله" في لبنـان عـام 2006. إذ تطلب الأمـر أربعة وثلاثين يوما للتوصـل إلى هدنة لوقف النزاع: "بقـي مجلـس الأمن متفرجا أياما عديدة، ينظر إلى مشاهـد الفظائع الوحشية التي ارتكبـت بحـق اللبنانيين.. لماذا؟"، كما سـأل. ثم قال بالتحديد: "أقـف ضد السياسات التـي اختارتها حكومة الولايات المتحدة لإدارة العالم لأن هذه السياسات تدفع العالم نحو الحرب"[63].

وعلى الرغم من الاختلافات على السطح، تتشابه ملاحظات بوش وأحمدي نجاد في فهمها لما تدعوه الديانات الإبراهيمية بنهاية الزمان. هذا الفهم هو الذي يكون نظرة كل منهمـا إلى العالم. فكلاهما يؤمن بمعركة حاسمة ونهائية بـين الخير والشر، ويعتقد أنه يمثـل الخير كما يجسد خصمه الشـر. وأن المسيح سوف يعود إلى الأرض وينضم إليه في المواجهة - وهنا تكمن مفارقة انتماء الديانتين المسيحية والإسلام إلى العائلة الإبراهيمية واكتساحهـا الحجج المنطقية وتحويلها إلى عبث. واللافـت أن كلا منهما يؤكد أنه اختير تحديدا لقيادة أمته من قوة إلهية ويعمل بهمة ونشاط على نشر وبث رؤيته الأخروية. بوش يعتقـد أن المسيـح إلى جانبهعندما سئل عن الكتاب المفضل لديه، قـال إنه الإنجيلويؤمن

نجـاد بالشـيء ذاته تمامـا، أي أن الله معه. ووفقـا للتراث الإسلامـي، هنالك علامات وآيات دالة على نهاية الزمان منها عودة عيسى المسيح الذي سيحارب قوى الأعور الدجال (المسيـح الدجـال عند المسيحيين). وبـرأي تقاة الشيعة، مثل أحمـدي نجاد، تتمتع هذه اللحظـة الزمانية بأهمية دلالية مضاعفة لأنها ستمهد لعودة الإمام الغائب، الذي يتحدر من آل بيت النبي ويحارب إلى جانب المسيح ضد الأعور الدجال.

يتطلب إيمان بوش المسيحي أن يعمل على تأمين القدس استعدادا لعودة المسيح، تماما كما يتطلب إيمان أحمدي نجاد الترحيب بعودة الإمام الغائب الذي ستبشر عودته بقدوم المسيـح. وكلاهمـا ملتزم تعجيـل العملية التي تعيـد المسيح إلى الأرض. وبوصفه زعيما منتخبا بطريقة شرعية في وطنه، فهو يعبر عن معتقدات شريحة واسعة من سكانه.

الحملـة الأمريكية لمنع إيران من تطوير برنامـج تخصيب اليورانيوم وتصميم إيران على القيـام بذلك بحاجة إلى رؤيتهما ضمن هذا السيـاق. فالسياسة الخارجية للبلدين كليهمـا مؤسسة علـى ذم وقدح والطعن في رئيـس البلد الآخر وثقافتـه. وهذا يساعد في تفسير السبب الذي دفع كيسنجر، في مؤتمر مجلس الشؤون الدولية المنعقد في فيلادلفيا عام 2006 (انظر الفصل الرابع)، إلى وضع خطة موجزة لشن هجوم نووي على إيران. وبعد بضعة أسابيع فقط، اندلعت الحرب في الشرق الأوسط حين حاولت إسرائيل اجتياح جنوب لبنان وارتفعت أصوات المعلقين الأمريكيين الصاخبة تأييدا لتوجيه ضربة عسكرية نوويـة إلى إيران لمنعها مـن حيازة التقانة النوويـة. إيران ليست العـراق ولا أفغانستان، فكلاهمـا بلد أصغر وأكثر فقرا وأقل تجانسا. ولن تقتصـر نتائج الضربة النووية لإيران على إثارة وإلهاب مشاعر الشيعة في العالم فقط، بل ستؤدي إلى زعزعة استقرار جيران إيـران المهيمن، مثـل السعودية وباكستان، وكلاهما حليف رئيـس لأمريكا. ولا ريب في أن التداخل المعقد الـذي يخلط بين السياسة الخارجية المشوشة واللاهوت، يدفع العالم إلى شفا حرب عالمية.

تجعـل هـذه السياسات نمـوذج أجمر غـير ذي صلة ونمـوذج عليكره مجـرد ذريعة تبريريـة للتنـازل أمام الغـرب. والمسلمون الذين يعـدون أنفسهم معرضـين للهجوم من الغـرب، عسكريا وثقافيا في آن، لا يجـدون أي معنى في الحديث عن الإنسانوية الشمولية

والعالمية في نموذج أجمر، وليس لديهم أي أمل – نظرا للسجل الثابت للسياسة الخارجية الأمريكيـة – في الحصول على دعم للزعمـاء الديمقراطيين الذين يتبنون نموذج عليكره إلا إذا كانـوا مستعدين للتنازل عن مصالحهم الوطنيـة. لهذا السبب يحتشد هذا العدد الكبـير من المسلمين وراء نموذج ديوباند. لكن لأن الولايات المتحدة ترفض الحوار معهم، انقطعت الاتصالات، وعـاودت الظهور على السطح الحجج والأدلة التي سادت في العقود القليلة الماضية، ونفذت السياسات القديمة ذاتها، وتشكلت الكوارث نفسها.

ومـع سعي الأمريكان الحثيث إلى مساعدة العـالم الإسلامي أو السيطرة عليه، يبدو أن الوضـع يـزداد فوضى واضطرابـا، ويستمر في ترديد أصداء الماضـي. يلاحظ العالم الإسلامـي ذلـك ولا يخدعه حديث الولايـات المتحدة عن الديمقراطيـة. وبدلا من ذلك يبقى في حالة انتظار للكوارث المتوقعة التي تلوح في الأفق (ويمكن تجنبها بالتأكيد).

ومع ذلك كله، يمكن الآن لتغيير جذري في السياسات تجاه العالم الإسلامي أن يجنب العـالم هذه الكـوارث، على المدى البعيد والقريب معا. يجـب القيام بخطوات جبارة نحو بناء الثقة وإظهار حسن النوايا إزاء العالم الإسلامي وتوكيد احترام ثقافته ودينه. وعلى الولايات المتحدة أن تقرن خطابها عـن الديمقراطية بدعم حقيقي للعملية الديمقراطية بغض النظر عن الحاجة إلى حلفاء يذعنون لها. وعلى نحو مشابه، وبدلا من تقديم المعونات العسكرية إلى البلدان الإسلامية، يجب أن تطور برامج تعليمية ومرافق تثقيفية تغير تفكير الشباب المسلم الذين يتعلمون الآن التطرف في المدارس الدينية. إن كره المسلمين لأمريكا يأتي مـن كونهم ضحايا الأسلحة الأمريكية التي يستخدمهـا إما حكامهم الديكتاتوريون أو الجنـود الأمريكيون، بحيث ينسبون جميع هذه الأعمال الوحشية الفظيعة إلى الولايات المتحـدة. فإذا طبقت هذه التغييرات في السياسة في الحـرب على الإرهاب، فسوف تغير العلاقـة تغييرا جذريا وتقلص عدد الأعداء في الحاضر والمستقبل. ليست هذه المبادرات مكلفة ولا تتطلب أكثر من تطبيق التفكير المنطقي على القضايا المعقدة التي أوقعت صناع السياسة الأمريكيين في ورطة مأزقية في أعقاب ردة الفعل العنيفة على مشروع المحافظين الجـدد و"مبدأ بوش"، كما عبرت عنها نتائج انتخابات الكونغرس النصفية عام 2006: إذ فاز الديمقراطيون بأغلبية مقاعد مجلس الشيوخ ومجلس النواب (كان الفوز في مجلس

الشيـوخ بهامش بسيط)، وعد ذلك على نطاق واسع استفتاء للأمريكيين على الحرب في العراق والحرب على الإرهاب.

ومع استمرار دورة العنف التي تشمل الآن الكوكب الأرضي ويبدو أنها تخرج عن نطاق السيطـرة، تبتعد الحضارتان الغربيـة والإسلامية باطراد عن مثلهما القائمة على العدل والإحسـان والحكمـة. ومن المهـم لجميع البشر فهـم هذه العلاقة المعقـدة، بغض النظر عـن المنظور السياسي أو المعتقـد الديني. وفي غياب الإرادة العالميـة الشاملة لوقف زخم العنف وعدم اليقين، فسوف يتحولان إلى كابوس عالمي لا نهاية له. المجتمعات بحاجة إلى العـودة إلى تلـك الأفكار التي رعتها وغذتها طوال آلاف السنـين، وأوجدت فيها الإحسان والتعاطف مع الآخرين. باختصار، تعد الأزمة الراهنة تحديا لهوية الإنسان ذاته، بوصفه كائنا مفكرا يهتم بأخيه الإنسان.

obeikandl.com